د. محمد العبدة

دروس السيرة النبوية

دار عمار

دروس
السيرة
النبوية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/١٢/٥٢٩١)

٢٣٩

العبدة ، محمد سليمان

دروس السيرة النبوية/ محمد سليمان العبدة .- عمان : دار عمار للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .

( )ص.

ر.إ.: (٥٢٩١ / ١٢ / ٢٠٠٩).

الواصفات : / السيرة النبوية // الاسلام /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

دار عمار للنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٢٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

«من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول اللّـه ﷺ».

ابن حزم

«وانقضت عشر سنوات بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، ما تعادل في عمر الأمم بمئات السنين ولا آلافها، ذلك أنها حقبة من الزمن لامعة مضيئة فذة في عمر التاريخ لا يمكن أن يقاس بها الحقب، ولا يمكن أن تشبهها الأيام».

محمد أمين المصري

«ولولا هذه التربية بالعمل، لما كان الإرشاد القولي كافيًا، فالسنة هي علمتهم كيف يهتدون بالقرآن، ومرنتهم على العدل والاعتدال في جميع الأحوال».

رشيد رضا

مُقَدِّمَة

الحمد للَّه الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ومَنَّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، هو خاتم الأنبياء وخير البشر وأعلاهم قدرًا وذكرًا وأحسنهم خَلْقًا وخُلُقًا، هدى إلى سبيل الرشاد، وجاهد في اللَّـه حق الجهاد، وفتح اللَّـه به أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا، صلوات اللَّـه وسلامه عليه وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن أوجب الواجبات على المسلمين الاهتمام بسيرة نبيهم اهتمامًا بالغًا، وإعادة قراءتها في كل عصر، فإنها من أصدق السير، وأعظمها في تاريخ البشر، وإذا كان الناس يقرأون سير عظمائهم والنابغين فيهم ليبقى لهم مثالاً يعتزون به، فإنَّ حياة محمدﷺ أولى من تُقرأ سيرته وتعاد، ونتعلم منها ونعلمها، فهي الْمَعين الذي لا ينضب في معرفة الجيل الأول، كيف تربَّى ونشأ، وكيف جاهد وسالم، وكيف نشأت أمة، وتأسست دولة.

روى الخطيب البغدادي عن محمد بن عبد اللَّـه قال: سمعت عمي الزهري يقول: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»، ورُوِي عن إسماعيل بن محمد بن سعد (ابن أبي وقاص) أنه قال: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول اللَّـهﷺ وسراياه، ويعيدها علينا ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تُضَيِّعوا ذكرها»، ورُوِي عن علي بن الحسين أنه كان يقول: «كُنَّا نعلم مغازي الرسولﷺ كما تُعَلَّم السورة من القرآن»[1].

---

(١) د. حافظ حكمي، مرويات غزوة الحديبية: ٦، ط ١، ١٩٩٠، دار ابن القيم، الدمام.

ومن الملفت للنظر أن ابن إسحاق قسَّم السيرة إلى: المبتدأ والمبعث والمغازي (فهذا يدل على أنه يرى أن البعثة المحمدية هي قمة التاريخ الإنساني، وكل ما سبقها تمهيد لها، وكل ما كان بعدها إكمال لرسالة الإسلام»[1].

اهتم المسلمون في كل العصور بسيرة نبيهم، فلم يخل عصر من التأليف فيها، إلا أن الاهتمام بها في العصر الحديث فاق بعض العصور السابقة، ولعلّ مرجع ذلك لتوالي الأخطار وتكالب الأعداء، فكان الرجوع للسيرة التماسًا للحل وبحثًا عن المخرج من هذا الضعف، وهذا الابتعاد عن الحضور والشهود، كما اهتم بها أهل القرنين السادس والسابع الهجريين، عندما رُزِءَ العالم الإسلامي بغزو التتار.

إن المسلمين أجدر من كل أمة بقراءة سيرة نبيهم وكتابتها لكل طبقات الناس، وبالأسلوب المناسب لمداركهم.

لا يستفيد الناس من التاريخ والماضي إلا إذا كانوا جادين في بحثهم، يمارسون التأمل النظري، والتفكير الدائم، فالاعتبار بالأحداث إنما يكون (لأُولي الألباب) الذين يقومون بالمقارنة والتحليل، والذين يثقون بوعد اللَّـه ونصره لأوليائه، وخزيه لأعدائه، وقد قام شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا الأمر عندما دهم الغزو المغولي بلاد الشام «وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتث ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويُصطلم وعُقْرُ دار المؤمنين (الشام)[2] أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار»[3].

وزُلزِل الناسُ واستعدوا للهروب والخروج من ديارهم، وأنزل اللَّـه الثلوج الغزيرة، وأرسل الرياح الشديدة، فكان ابن تيمية يثبت الناس ويقول لهم:

---

(١) د. حسين مؤنس، تاريخ الفكر العربي: ١١٦.

(٢) يقال: عقر الدار: أصلها ووسطها، قال ابن الأثير: كأنه أشار إلى وقت الفتن أي يكون الشام يؤمئذ آمنًا منها. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٢١٧.

(٣) الفتاوى: ٢/ ٧٢٤، ط١، الرياض، ١٣٩٨هـ، جمع: عبد الرحمن بن قاسم.

«هذه مثل الخندق، سينصرنا اللَّـه سبحانه وتعالى»، وطلب من جيوش الدولة الاستعداد لهذا، وحضهم على نية الجهاد، حتى جاء نصر اللَّـه ورجع العدو.

إن الاعتبار بالأحداث ومقارنة الحاضر بالماضي منهج قرآني لتربية المسلمين، فعقب ذكر الأنبياء وأخبارهم مع أقوامهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى تعقيبًا على قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦﴾ [النازعات: ٢٥ - ٢٦]، وقال تعالى عن بني النضير: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

السيرة النبوية تجسيد حي لتعاليم الإسلام، فالمبدأ هنا يمكن تطبيقه، وإن المثال العملي أشد وقعًا وتأثيرًا في نفس الإنسان من المثال القولي، والسيرة النبوية تمثل هذا الاتجاه، وذلك عندما نجد الرسول ﷺ يعمل بيده الشريفة في بناء المسجد، ويتقدم الصفوف في القتال، ويستقبل الوفود ويعقد المعاهدات، وعندما نجده يشارك أصحابه أمور الحياة وهموم العيش، ويتألفهم ويألفونه، وحين خاض الرسول ﷺ معركته مع الجاهلية بوسائل البشر، وتعامل مع الواقع بكل أبعاده: ابتلاء وصبرًا وألَمًا وفقرًا وغنًى «فلو لم تكن له معجزة غير سيرته لكفى»[1].

هنا نجد الصورة المشرقة للإنسان الذي لا يفرق بين القول والعمل، فهو المثل الأعلى للبشرية كلها، وهو الوحيد بين الأنبياء والعظماء الذين نعرف سيرتهم بالتفصيل، فسيرته ﷺ معلومة مسجلة، لم يخف منها شيء، حتى أصبح المسلم عند قراءته للسيرة كأنه يعايشه ويشاهده. لقد وصفه الصحابة في قيامه وقعوده، وأكله وشربه، وصفوه بدقة حتى ذكروا عدد الشعرات البيض في رأسه ولحيته، وتحدثوا عن سيرته في المنزل وبين الناس في الليل والنهار.

نحن لا نعلم عن حياة عيسى عليه السلام إلا ما ذكر القرآن الكريم.

---

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل: ٢/ ٩٠.

والأناجيل المحرفة لا تذكر إلا نُتَفًا قليلة عن حياته عليه السلام. والبوذيون لا يعرفون عن بوذا وأسرته وحياته إلا القليل.

عاش محمد ﷺ بين أعدائه من اليهود والمنافقين، ولم يستطيعوا أن يجدوا في حياته نقيصة، بينما نرى أن الأمم التي تعظم أبطالها يخفون مساوئهم وحياتهم الخاصة.

ومن خلال السيرة نعلم كيف تطورت الدعوة، وكيف انتقلت من مرحلة إلى أخرى، من مرحلة الاستضعاف والابتلاء إلى البحث عن مكان آمن، إلى الهجرة، ثم التمكين في المدينة، وتطهير الجزيرة العربية من الشرك والجهل.

من خلال السيرة نتعرف على الإطار العام لبعض الآيات القرآنية ومواضع نزولها وظروف نزولها، مثل الآيات التي تتحدث عن بدر وأحد ... «فاقرأ سيرة النبي ﷺ، وتتبع أفعاله وأحواله، وتشبَّه به ما أمكنك بقدر طاقتك، وإذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه وتطببه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه، وفعلت اليسير من ذلك، فأنت السعيد كل السعيد»[1].

هذا الكتاب ليس سردًا للسيرة النبوية فهذا متوفر والحمد للّه، وقد حظيت السيرة في العصر الحديث بالتمحيص ومعرفة الصحيح والضعيف من أحداثها، كما بذلت جهود للاستفادة من فقهها، وإضافة لهذه الجهود قمت بالتعليق على بعض الأحداث والمواقع إغناء لمسيرتنا الدعوية، فبعض الموضوعات ما تزال بحاجة للتوضيح وإزالة الغبش مثل قضية السرية والعلنية، والابتلاء والمحنة، والتدرج والمرحلية ..

إن أحوال المسلمين والظروف التي تحيط بهم تستدعي العودة للسيرة النبوية. واللّـه غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لندن

---

(١) محمد كرد علي: كنوز الأجداد: ٣١٤، والكلام للعالم: عبد اللطيف البغدادي.

(١)

الرسالة

«والرسالة روح العالم ونوره، وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة»

ابن تيمية

هل يستطيع الإنسان – وهو الموصوف بالضعف – إدراك مصلحته الحقيقية، وتحقيق إنسانيته وسعادته في الدنيا والآخرة دون أن يهتدي بنور من اللّـه؟ هل يقوم الإنسان وحده كما توهم بعض فلاسفة الغرب في أول هذا القرن؟[١]

إن واقع البشرية منذ بدء الخليقة يقول جوابًا عن هذه التساؤلات: لا، بل ويثبت أن الإنسان بعيدًا عن الرسالة، وبعيدًا عن اتباع الوحي، ينحط إلى درك بعيد في الوثنية وعبادة المخلوقات، والخوف منها، والتعلق بالأوهام والأساطير، وها نحن نرى المتعلمين من الهندوس يعبدون البقر، ونرى المتعلمين من أمم كثيرة يلجأون إلى التنجيم والكهانة والسحر، ونرى الأطباء يشربون الخمر والدخان، وهم أكثر الناس علمًا بمضارها، ونرى الكتاب والفلاسفة الذين يصفون جمال الدنيا ومتعها، يُقدمون على الانتحار.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن حاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب، فإن آخر ما يُقدَّر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا

---

(١) كتب (جوليان هكسلي): الإنسان يقوم وحده، فرد عليه (أكريسي موريسون): الإنسان لا يقوم وحده.

لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا تُرجى الحياة معه أبدًا»[1].

ويقول أيضًا: «والعقل يدرك مدار السعادة من حيث الجملة، ولكنه لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومَنْ يداويه ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه»[2].

والغرائز في الإنسان يشبه بعضها بعضًا، أما العقل فهو مختلف أشد الاختلاف، فلابد من الوحي السماوي، فمنزلة العقل من الوحي هي كضوء البصر الذي يهتدي بنور الشمس.

إن رغائب الإنسان غير محدودة، فمن الذي يقف أمام هذه الشهوات؟ وكيف نمنع اعتداء البشر على إخوانهم؟ لابد من وازع قوي يخضع له الجميع خضوعًا ذاتيًّا، ولا يكون هذا إلاَّ للدين «إن مجرد الإقناع العقلي بضرر الضار ونفع النافع، لا يوجب العمل ولا الترك، لأنه قد يعارضه هوى النفس ولذتها، كشرب الخمر، ولعب القمار، فلا يمكن تهذيب الأمة بالإقناع العقلي، فلابد من تأثير آخر على النفوس، وهو الدين»[3]، «وقد يبلغ الإنسان مبلغًا كبيرًا بالتربية الوضعية، كما في بعض البلدان التي تُربي أبناءها على المواظبة، وحفظ حقوق الآخرين، ولكن هذا لا يبلغ في التهذيب والإصلاح مبلغ الدين، إن البشر يرجعون القهقرى في الآداب والفضائل على نسبة عكسية مطردة لارتقائهم في العلوم المادية، فهم يزدادون إسرافًا في الرذائل، وجرأة على اقتراف الجرائم، وهذا برهان على أن العلوم والفنون البشرية المحضة غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا»[4].

---

(١) الفتاوى (١٩/ ٩٦).

(٢) المصدر السابق (١٩/ ٩٦).

(٣) رشيد رضا، تفسير المنار (٦/ ٢٦٥)، نشر دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

(٤) رشيد رضا، مجلة المنار م(٣٣/ ٢٨٢).

وعقلاء الحضارة الغربية يقولون: «إن جري البشرية اليوم وراء السعادة لم تثمر إلا التعاسة والقلق، ومعاناة الاكتئاب والنزوع التدميري»[1]. ويقول (رينيه دوبو): «يجب اعتبار أكثر الناس في أقطار المدنية الغربية – وخاصة أمريكا المعاصرة – من الجانحين؛ لأنهم يتصرفون وكأن المقياس الوحيد للسلوك هو إرضاء رغباتهم وغرائزهم الآنيَّة»[2]، ويأخذ (دوبو) على المجتمعات النامية تقليدها للمجتمعات الصناعية التي تعبد الاستهلاك والإنتاج.

ومن الأدلة على نقص الإنسان وضعفه، أنه ما أنشأ تشريعًا من عند نفسه إلا ووجد فيه بعد فترة قصيرة من الزمن نقصًا يحتاج لإكمال، أو خطأ يحتاج لتعديل، فالنظام الرأسمالي الديموقراطي يعتبره الغربيون أقصى ما يستطيع الإنسان تصوره في النظم السياسية، ولكن عيوبه أصبحت واضحة للعيان؛ لأنه يقوم على التوسع في المال، ومن أي مصدر كان ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

إن الذي يلجم الناس عن الفساد، وإن الذي يزكي النفوس ويطهرها هو الإيمان باللَّـه وباليوم الآخر، وما سمعنا أن سياسيًّا أو عسكريًّا أو عالمًا نِحْريرًا خضع له الناس وصاروا أتباعًا له إلى يوم القيامة، مثلما فعلوا مع الأنبياء، وما سمعنا أن فيلسوفًا أقام مدنية أو حضارة، وإنما قد يؤلف دولة خيالية كما فعل الفارابي في (المدينة الفاضلة) أو أستاذه أفلاطون في (جمهوريته) فأين هذا من عظمة التشريع الذي جاء به الإسلام لتنظيم مسألة الأسرة ومسألة المال والإنفاق، ومسألة السلم والحرب، وحفظ الدين والنفس والعقل والنسل ... إلخ.

---

(١) إريك فروم، الإنسان الجوهر والمظهر: ٢٤.

(٢) ماجد الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية: ١٩٢.

أهمية الرسالة:

وليست الرسالة ضرورية لصلاح الناس في معاشهم بل كذلك في معادهم، فإن الإنسان مضطر للشرع الذي يدل على ما ينفع ويضر «وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجْم، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل والبر، والتصدق والإحسان، والأمانة والعفة، والشجاعة والحلم، وصلة الأرحام، والتسليم لحكم اللّـه والانقياد لأمره ...»[1].

إن الإنسان بفطرته يشعر أن الرسالة واتباع الدين يجعل الأمة أهدى، قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، ولذلك سمَّى اللّـه سبحانه وتعالى رسالته (روحًا)، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، «بل إن كل خير في بقعة من بقاع الأرض، وكل نور يومض حتى لو كان ضئيلاً، وكل صلاح أو كرم خلق، أو طهارة قلب فمرده في الأصل إلى رسالات اللّـه»[2]، وإن أعظم نكبة أصابت الأديان هي عدوان الوثنيات عليها، ونقلها من التوحيد الخالص إلى انتكاس للإنسان في وحل الشرك والخرافات.

إن مكانة الأمة إنما تبرز وتترسخ بمقدار ما تقدمه من عطاء حضاري، والأمة الإسلامية تحمل رسالة للناس الذين تعبوا من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية.

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ٩٩).

(٢) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية: ٣٠.

وعندما تتوقف الأمة عن العطاء فإن ذلك معناه الذوبان، وفقدان الهوية، والعيش على هامش ما تنتجه المدنيات الأخرى.

وإن حمل الرسالة وتبليغها للناس يحفظ وحدة الأمة وكيانها، ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩].

نزعة التدين عند الإنسان:

إن اهتمام الإنسان بالدين والبحث عما وراء المادة والبحث عن الغيبيات، مركوز في فطرته، فهو دائمًا في حالة تدين، سواء أصاب أم أخطأ، ضلَّ أم استقام، وإن الفترات التي يتنكر الناس فيها للدين، إنما هي فترات استثنائية، ففي كل مجتمع يظهر أناس مستهترون مماحكون، والأصل أن الإنسان مخلوق على الفطرة، وهي معرفة الحق، وسلامة القلب، وعلمه بفقر نفسه، وحاجته إلى خالقه، وهو مضمون آية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ١١٩]، أن الشيطان يأمرهم بالكفر وتغيير فطرة الإسلام، وهذا التوجه إلى اللّـه، المركوز في النفس الإنسانية، يظهر عند الشدائد في صورة الالتجاء إلى الخالق: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقد حدث أن قامت في أوربا نزعة ضد الدين، وذلك في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، ولكن علماء القرن العشرين عادوا للاعتراف بأن نزعة التدين قديمة موجودة في طبائع البشر، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي إحدى النزعات العالمية الخالدة، والغريزية الدينية لا تختفي، بل لا تضعف ولا

تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جدًّا من الأفراد[1]، ويقول الدكتور (ألكسيس كاريل): «فلا يزال الإنسان مستمرًا في سعيه الأبدي وراء الأساس الروحي للأشياء، وقد أحس بالحاجة إلى العبادة في كل العصور، وفي كل الأقطار على وجه التقريب، فالعبادة تكاد تكون عنده ميلاً طبيعيًّا كالحب»[2]، ويقول (برغسون): «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة»[3]، ويقول (بلوتارك): «من الممكن أن نجد مدنًا بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح، ولكن لم ير الإنسان قط مدينة بلا معبد أو لا يمارس أهلها العبادة»[4].

ويقول (أرنولد توينبي): «التدين جزء من الطبيعة البشرية، والإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين، فالإنسان ليس حشرة اجتماعية ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك..».

هذه أقوال علماء سبروا أغوار النفس البشرية واطّلعوا على تاريخ البشر، وعرفوا الإنسان في بدائيته ومدنيته، وحضارته وبداوته، عرفوا إنسان نيويورك ولندن وباريس، وإنسان القبائل الموغلة في البدائية والبعد عن الحضارة في أفريقيا وأستراليا وأمريكا الجنوبية.

وفي القرآن: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦ – ٧]،

---

(١) محمد عبدالله دراز، الدين: ٨٤، ط ١٩٦٩م، وهو ينقل عن معجم لاروس للقرن العشرين.

(٢) تأملات في سلوك الإنسان: ١٦٩.

(٣) دراز، الدين: ٨٥.

(٤) عفت الشرقاوي: الفكر الديني في مواجهة العصر: ٤١٠.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ – ٢٠]، فإذا كانت هذه حال الإنسان، فإن من فضل اللّـه ورحمته أن أرسل له الأنبياء يقومون بهدايته للطريق المستقيم، وينقذونه من الجهل والظلم، وكان خاتم الرسل محمدًاﷺ الرحمة المهداة، الموصوف بالتوراة: «ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا اللّـه»[1].

* * *

(١) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٩٣)، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.

(٢)
خيار من خيار

استجيبت دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبعث اللَّـه سبحانه وتعالى محمدًا خاتم الرسل والأنبياء من ذرية إسماعيل عليه السلام، وأوحى إليه خاتمة الرسالات إلى الأرض، وللَّـهِ الحكمة البالغة في اختيار الرسل وتفضيل الزمان والمكان ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، واختار سبحانه من الأماكن البلد الحرام وجعلها منسكًا لعباده، ومن هذا تفضيله بعض الأيام أو بعض الشهور، مثل يوم النحر وشهر رمضان ويوم الجمعة ... .

اختار اللَّـه لرسالته محمدًا من بني هاشم الذين هم في الذؤابة من قريش، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إن اللَّـه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيركم نفسًا وخيركم نسبًا»[(١)]. واختار أصحابه من جملة العالمين، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن اللَّـه تعالى اطّلع في قلوب العباد فاختار محمدًا ﷺ فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب الناس بعدُ فاختار له أصحابًا فجعلهم أنصار دينه»[(٢)]. قال رسول اللَّـه ﷺ: «إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على اللَّـه»[(٣)].

---

(١) الألباني، صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٨٩)، ط. مكتب التربية العربي ١٩٨٨، الرياض.
(٢) البغوي، شرح السنن (١/ ٢١٤).
(٣) الألباني، صحيح سنن الترمذي (٣/ ٣٢)، وانظر ما كتبه العلامة ابن القيم حول هذا الموضوع في الزاد (١/ ٤٢).

فهل كانت قريش، وكان العرب، جديرون بحمل الرسالة وأن تكون أرضهم قاعدة الإسلام الأولى؟ وهل يتميزون بصفات تؤهلهم لذلك الدور؟ مع أن الأمم المعاصرة لهم كالفرس والروم أكثر مدنية وأوسع نفوذًا.

لماذا العرب؟

تحدث علماء وكُتّاب قدامى ومعاصرون عن هذا الأمر، ويتفق غالبهم على أن الحكمة في ذلك غير خافية، فالعربي قبل الإسلام كان إنسانًا حُرًّا، لا يخضع لسلطة تقهره وتعدو على شخصيته أو تحطمها، «ولأن جميع شعوب الحضارات المجاورة من الفرس والروم وغيرهما كانت قد فسدت غرائزها وأخلاقها الفطرية وعقائدها الدينية بفساد حريتهم العقلية بالتقاليد الدينية التي يفرضها الكهنة والأحبار، وسلب حرية إرادتهم في حياتهم الشخصية بما يضع لهم الملوك والحكام من القوانين والنظم الاستبدادية، أما العرب فلم يكن عندهم رئاسة حكم استبدادية تستذلهم وتفسد بأسهم، فكانوا على أتم الاستعداد للنهوض بما اعتقدوا حقيقته وصلاحه»[(١)].

يقول الشيخ ولي الله الدهلوي: «اعلم أن النبي ﷺ بُعِثَ في العرب وعاداتهم أوسط العادات، ولم يكونوا يتكلفون تكلف العجم»[(٢)]، ويقول الراغب الأصفهاني: «فالناس إن بقي في نفوسهم أثر قبول الخير أنشأ اللّـه فيهم من يهديهم، كبعثة النبي ﷺ في العرب، لَمَّا بقي فيهم من أثر الخير من تعظيم الشهر الحرام والبيت الحرام والوفاء بالذمام ..»[(٣)].

---

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (١١/ ٩٥).

(٢) حجة اللّـه البالغة (٢/ ١٨٦).

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ١٦١.

فهذا الجيل من العرب لم تفسده المدنية ولم تدنس أرضه أقدام الفاتحين الغاصبين، فهو أقرب للفطرة وأكثر استعدادًا لحمل الرسالة، بسبب استقلال الشخصية والبعد عن أخلاق الخنوع، ولنتصور دعوة النبي ﷺ بين أقوام ألفوا الجدل والمناقشات العقيمة، أصحاب تراث فيه خلط وتلبيس، وفيه شيء من الحق وكثير من الباطل، وقد ابتليت نفوسهم بالكبر وحب الذات، كيف سيكون ردهم على دعوة جديدة، قال تعالى عن أمثال هؤلاء: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣]، لقد ابتلي عيسى عليه السلام في مخاصمة اليهود له بأحبار السوء والكهنة الذين يدافعون عن مصالحهم الخاصة، بينما نجد العربي لفطرته بمجرد أن يشعر بصدق هذا النبي وأنه يأمر بالأخلاق الحسنة، يبادر إلى الإيمان ويدخل شغاف قلبه.

ومن سنن اللّـه سبحانه وتعالى أنه إذا أراد أمرًا عظيمًا هيَّأ له الأسباب التي تعين عليه، وإذا أراد ثمرًا غَرَسَ له غرسًا، فاختار لرسوله ﷺ أعدل الأمم يومَها وأوسطها وأبعدها عن أمشاج الفلسفة الموغلة في الجدل، والتي تشوش على الإنسان سمعه وعقله، إذ لا ينهض بالأعمال الجليلة إلا الجليل من الأمم والرجال، والقرآن الكريم يذكّر العرب بالشرف الذي سينالونه بحمل الرسالة ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣ – ٤٤] ...، «فهذا هو السر والحكمة في اختيار اللّـه للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، لما كانوا عليه من شرف النفس، والأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه»[1].

---

(١) عبد الحميد بن باديس، التفسير: ٦٥٧، وهو جزء من محاضرة (العرب في القرآن).

«لقد كان للعرب في الجاهلية صفات حسنة ومحامد جمّة، أفسدها الغلو فيها مثل الكرم وعزة النفس، فلمّا أزال الإسلام عنها ما فيها من الغلو صارت محامد خالصة»[1]، وفيهم صفات سلبية كثيرة، وأشدها ما هم عليه من الشرك والوثنية، فلما تمكن هذا الدين من قلوبهم صاروا إلى حال كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

«والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافي يمكن أن تهذبه، ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال»[2].

ولماذا قريش؟

تميزت قريش بصفات زائدة على صفات العرب الإيجابية، فإن بعض العرب في جنوب الجزيرة وشمالها قد خضعوا للفرس والروم، أما قريش فلم تخضع لأحد. وكان قَصِيُّ بْنُ كِلاَبٍ هو الذي جمع قبائل قريش وجعلهم حضرًا دون أن يفقدوا أحسن خصائص البداوة، وتقاسم قصي وبنوه الأعمال والقيادات المتخصصة، فكانت الرفادة وسقاية الحاج لبني هاشم، وقيادة الحرب لأمية، والحجابة والسدانة لبني عبد الدار، والسفارة لبني عدي ... وأسسوا دار الندوة لأجل الشورى، ونظّموا أمور تجارتهم ورحلات الصيف والشتاء وهي التي ذكرها اللّـه سبحانه وتعالى وهو يمن عليهم هذا الإيلاف، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ كأنه يقول: أهلكت أصحاب الفيل لتأتلف قريش، أو لكي تأمن في رحلتيها.

---

(١) الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي: ٣٤.

(٢) تفسير ابن باديس: ٦٥٧.

ومن خصائص القرشيين التي لا يدانيهم فيها أحد: تركهم للنهب والغزو لما فيه من الغصب واستحلال أموال الناس، ومع تركهم للغزو الذي كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا أشجع الناس، ومع انشغالهم بالتجارة لم يقعوا في البخل، لا في قليل ولا كثير، كما يقع عادة لكثير من التجار، بل كانوا غاية في الكرم، وقاموا بحقوق زوار البيت الحرام.

كانت مكة من المدن التي تجمع بين محاسن الحضارة ومحاسن البداوة، فلابد في الدعوة الرسالة من الإيمان الذي لا يعرف التردد، ولا يحسن اللف والدوران، ولابد من الاستقرار والأخلاق التي تحفظ الحقوق كما وقع لبعض بطون قريش حين أجمعت على أخذ الحق للمظلوم، وتعاهدوا على ذلك في (حلف الفضول)، ولحكمة بالغة قال النبي ﷺ: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم»، «فالمدينة التي تتصل فيها الحضارة ينشأ فيها طبقة الكهان والمشرعين الذين لا يحبون دعوة الأنبياء، وفي البداوة بساطة التصديق والثبات في آن واحد، وفي الحضارة الاستقرار وحماية المعاملة ومبادئ الأخذ والعطاء»[1].

هذه الخصائص القرشية هي التي مكَّنت لرجالها بعد إسلامهم أن يقوموا بالجانب الكبير من مسؤوليات القيادة الإدارة.

ولماذا بنو هاشم:

وامتاز بنو هاشم على قريش بفضائل ومكارم، فكان جدُّهم هاشم صاحب إيلاف قريش الذي أخذ العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف إلى الشام، ومن حكومة اليمن في رحلة الشتاء، وإنما لُقِّب بـ(هاشم) لأنه هشم الثريد لفقراء مكة ولأهل الموسم في الحج، «وكان بنو هاشم أبعد قريش عن الكِبْر والخُيَلاء والأَثَرَة، لا ينازعهم أحد في ذلك»[2].

---

(١) عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء: ١٣٧.

(٢) رشيد رضا، تفسير المنار (١١/ ٩٧).

قال ابن الديبع الشيباني في تفسير حديث «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ»: «كان ﷺ مجبولاً عليها في أصول خلقته، مطبوعًا عليها في أول فطرته»[1]، فكان رسول اللَّـه ﷺ قبل البعثة بعيدًا عن كل المنكرات التي حوله بفطرته الزكية.

فوائد ودروس:

الدعوة الإسلامية المعاصرة، وهي تسعى لاستئناف حياة إسلامية، وأن يكون الدين كله للَّه، مدعوة لأن تختار أفرادها، وخاصة في مرحلة التأسيس والبناء، ممن هو أقرب للفطرة والخير، وأبعد عن الترف والانغماس في المدنية ومظاهرها، وأبعد عن النسب الوضيع.

إن رجل الفطرة يختلف عن الذي عاش حياته ذليلاً يشعر بالضآلة أمام آلة الدولة التي تطحن الجميع، فمثل هذا لا يستطيع القيام بإنجاز كبير، فهو دائمًا رجل (النصف)[2] الذي يقدم نصف جهد، ونصف اجتهاد، ونصف فكرة.

إن هذا الدين لا يقوم به إلا أهل الاستقلال في الفكر والرأي، وأهل الشجاعة والذكاء وقوة البأس، وأهل البعد عن مخازي الاستبداد، ولا يستطيع أن يحوطه من جميع جوانبه إلا من بَعُدَ عن أخلاق السَّفِلَة[3] وأخلاق الجدل والأنانية، وعلى المسلمين أن يُعرِّبوا حياتهم، وذلك بأن يرجعوا إلى نموذج الفطرة والبساطة في حياتهم، ذلك النموذج الذي طلبه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وألحَّ عليه حين قال: «تمعددوا، واخشوشنوا، وانزوا على الخيل»؛ أي كونوا كجدكم معد بن عدنان في خشونته وجَلَده، وتدربوا على

---

(١) حدائق الأنوار (٢/ ٨٢٢).

(٢) كما يعبر الأستاذ مالك بن نبي.

(٣) السَّفِلَة: السُّقاط من الناس، والسَّفالة: النَّذالة، مختار الصحاح: ٣٠٢.

ركوب الخيل والقفز عليها. لقد كان ﷺ يخشى من الإخلاد إلى الأرض والتخلق بأخلاق الشعوب الأخرى الذين تأسرهم المظاهر الفارغة ويخلدون إلى الرفه والدعة.

«ولا يعني هذا أن لابد من العيش في البادية أو الريف وترك المدن، وإنما القصد أن ينتزع المسلم نفسه من بيئته ليعيش حياة تساعده على حمل الرسالة ومشاقها، عندما يكون مَنْ حوله يعبدون المال والرياش، وقد وصف أحدهم السعادة بأنها (حل وسط بين حياة البداوة والتحضر)»[1].

لقد أخطأ بعض الكُتّاب حين راحوا يشنعون على العرب ويصفونهم بأقبح الصفات ليظهروا قيمة الإسلام في إنقاذهم وانتشالهم مما هم فيه من جاهلية، وظنوا أن بصنيعهم هذا قد قدموا خدمة للإسلام والمسلمين ولم يفطنوا إلى أنه ليس من سنن اللّـه سبحانه وتعالى أن يعهد بحمل الرسالة إلى أمة قد فسدت فطرتها وانحطت أخلاقها، فالعرب – كما ذكرنا – كان فيهم صفات قبيحة، ولكنهم بشكل عام كانوا أقرب للخير، والناس معادن كما جاء في الحديث.

* * *

(١) بيوري، فكرة التقدم: ١٦٢.

(٣)

قبل البعثة

كانت الفترة التي قضاها محمد ﷺ ما بين مولده إلى أن قارب الأربعين، كانت كلها مؤشرات على هذا الاختيار الإلهي، فقد وقعت حادثة شق الصدر وهو مسترضع في بني سعد، «فعن أنس بن مالك أن رسول اللّـه ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأَمَهُ[1]، ثم أعاده إلى مكانه. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[2].

واشتغل ﷺ بالرعي على قراريط لأهل مكة (وما من نبي إلا ورعى الغنم)، وهذا تدريب على العمل والخشونة في العيش. وشارك قومه في الأعمال الجليلة الخيرة مثل بناء الكعبة، ومثل التعاقد على حلف الفضول، وهو الحلف الذي تداعت إليه بعض بطون قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة ... وتحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى تُردَّ مظلمته، «وقد مدحه الرسول ﷺ بعد النبوة وقال: «لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد اللّـه بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت».

---

(١) جمعه وضم بعضه إلى بعض.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول اللّـه ﷺ.

والسبب المباشر لهذا الحلف أن رجلاً من (زبيد) أتى بتجارة فاشتراها العاص بن وائل السهمي، وأبى أن يدفع له حقه، فاستعدى عليه قبائل قريش، فكان هذا التحالف، وأما سبب تسميته فقد قيل لأنهم تحالفوا ألا يدعوا عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه.

وهو أول تعاهد لحماية حقوق الإنسان، وإنّ مدح الرسول ﷺ له ليدل على «أن الحمية ضد أي ظالم مهما عَزَّ، ومع أي مظلوم مهما هان، هي روح الإسلام الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر»[1]، ولاشك أن العدل قيمة مطلقة يستحق الإشادة به، والتعاون على الخير من أهداف الإسلام، وكل ما كان من شأنه إشاعة الفاحشة والظلم فهو مذموم. وأما قول الرسول ﷺ في حديث آخر: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»[2]، فهذا يعني أن الأحلاف المفرقة للمسلمين والمبنية على عصبيات بغيضة فهي المنفية هنا، والأحلاف التي تكون راجعة إلى معنى التعاون على البر والتقوى خادمة مبادئ الدعوة الإسلامية، فهي المحمودة ولو كانت حاصلة قبل الإسلام مثل حلف الفضول.

ومن سنن اللّـه تعالى أنه يمهد للأمر العظيم بمقدمات وإرهاصات، وإذا كان الوحي الذي سينزل على محمد ﷺ هو تكليف تنوء بحمله الجبال ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝﴾ [المزمل: ٥]، فإن من مقدماته أن تتهيأ نفس الرسول ﷺ لهذا الحدث، روى جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّـه ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عَلَيَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن»[3]، وعن علقمة بن قيس قال: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة»[4].

---

(١) محمد الغزالي، فقه السيرة: ٧٥.

(٢) مسند الإمام أحمد (١١/ ٢٨٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل: ٢٢٧٧.

(٤) فتح الباري (١/ ٩).

ومن التمهيد للحدث الكبير أنه حُبّب للرسول ﷺ الخلاء والعزلة، فكان يخلو في غار حراء الليالي ذوات العدد يتحنث[1]، ويبتعد عن مكة ووثنيتها ولهوها وضجيجها وكأن رسول اللّـه ﷺ كان كلما قرب من الأربعين من عمره الشريف ازداد شفافية ومحبة لمعرفة الحق بين هذا الركام من الجاهلية التي حوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَىٰ﴾ فيتهيأ لنزول جبريل عليه السلام بالوحي. وهذا التدرج والمرحلية ستكون سمة أيضًا من سمات التشريع والانتقال من المرحلة المكية إلى المدنية وغير ذلك من الأمور الملاحظة في السيرة النبوية.[2]

* * *

(١) أي يتعبد بترك الحنث وهو الإثم، وهذا مثل قولهم: يتحرج، أي ترك ما يحرج، أو يتأثم بترك الإثم.

(٢) سنتكلم بإذن اللّـه بالتفصيل عن هذا الموضوع المهم.

(٤)

الوحي والنبوة

جاء في حديث عائشة رضي اللَّـه عنها: «أول ما بُدئ به رسول اللَّـه ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[١]. ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق ...»[٢].

يقول الشيخ محمد عبد اللَّـه دراز تعليقًا على قول راوي الحديث: «فيتحنث الليالي ذوات العدد»، «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلة ولا إلى نهاية الكثرة، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النبي ﷺ قبل البعثة من التوسط والاقتصاد في الأعمال، شعارًا للملة الإسلامية ورمزًا للهدي النبوي الكريم بعد أن أرسله اللَّـه رحمة للعالمين»[٣].

---

(١) قال الشيخ رشيد رضا: والمعنى أنه كان يرى الرؤيا فتقع كما رأى، إذ تنطبع في مرآة روحه الصقيلة كما هي، فهذا ضرب من الوحي. مجلة المنار (١٩/ ٤٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب (بدء الوحي) ومسلم في كتاب (الإيمان).

(٣) المختار من كنوز السنة: ١٩، ط٢، ١٩٧٨، دار الأنصار، القاهرة.

وهذا الذي استنبطه الشيخ دراز / من حديث عائشة تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقوله ﷺ: «أَحبُّ الدين إلى اللَّـه الحنيفيةُ السمحة»، وقوله: «إن الدين يسر، ولن يُشاد هذا الدينَ أحدٌ إلا غلبه»، واستقراء الشريعة يدل على هذا الأصل، قال الإمام مالك: ودين اللَّـه يُسْر. وهذه الخاصية من أسباب انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه، ولو كان فيه تشدد لما استقام الناس عليه طويلاً، «فإن قوام الصفات الفاضلة والفطرة السليمة هو الاعتدال في الأمور»[1].

وقد أُمر أن يبلغ الناس هذه الرسالة التي ليست بدعًا من الرسالات، فكل الأنبياء قالوا لمن بُعثوا إليهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وإنما جاء الإسلام خاتمًا للرسالات ومهيمنًا عليها، وتتلخص هذه الرسالة: بإخلاص العبودية للَّه، وخلع ما دون ذلك من الجاهليات والوثنيات والعادات، والإذعان لهذا الدين علمًا وعملاً.

لقد انحرفت النصرانية واليهودية عن الجادة المستقيمة، وتعهد اللَّـه سبحانه بحفظ هذا الدين الذي جاء ليحرر الناس من تسلط الظلمة والكهنة.

نزلت الآيات المكية تتحدث عن «أصول الشرائع، وأصول الدين كما في سورة الأنعام والأعراف والإسراء، من الأمر بعبادة اللَّـه والأمر بمحاسن الأخلاق، والعادات، مثل صلة الأرحام، وبر الوالدين، والوفاء بالعهد، والعدل والإنصاف، وتحريم قتل النفس بغير الحق، وتحريم الفواحش والإثم والبغي بغير الحق ..»[2].

نزلت الآيات تعلم الناس طرق النظر الصحيحة والتفكر في الكون وآياته وأخذ العبرة من الأمم السابقة، وضربت الأمثال حتى يثوب الناس لرشدهم،

---

(١) الشيخ الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ٢٣، ط٢، الشركة التونسية للتوزيع، بدون تاريخ.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى (٣/ ٣٦٥).

وتصان كرامتهم من الوقوع في أوحال الوثنية، ولقد عالجت السور المكية المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت في المجتمع الجاهلي، وإذا كانت القضية الأولى والأهم التي تحدثت عنها الآيات المكية هي قضية التوحيد، وتوحيد العبادة على الأخص، فإن القرآن المكي تحدث أيضًا عن المشاكل الأخلاقية والاجتماعية ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾ [المدثر: ٥ – ٦]، ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝﴾ [الضحى: ٩]، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ [الماعون: ٧]، وتحدث طويلاً عن أخلاق الأمم السابقة، وأدان الظلم الاجتماعي والاقتصادي، وذكر الجهاد ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وذكر الدول الكبرى المجاورة (الفرس والروم)، ومعرفة المسلمين بما يجري حولهم من الأحداث العالمية (مطلع سورة الروم)، «فالسور المكية حاوية لمباحث الإيمان وهي أصول الدين، ومباحث الأخلاق، وأخبار الأمم الماضية، إذ المقصود إدخال الناس في الدين، ونبذ أصل الوثنية»[1].

لم يرجع رسول اللّـه ﷺ إلى الغار مرة ثانية بعد نزول الوحي، ولم يكن الصحابة يذهبون إليه لإعادة ذكرى نزول الوحي. وليس من الإسلام أو السنة أن يعتزل المسلم في الغيران والكهوف ذاكرًا اللّـه أو متعبدًا له.

ولكن يمكن لأهل فقه الدعوة أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة والتوبة والتأمل في واقع الدعوة، وما هي عليه من قوة أو ضعف، واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره، ولا مانع من العزلة في بعض الأوقات بل هي مطلوبة للحريص على دينه إذا رأى هوًى متبعًا ودنيا مؤثرة ولكنها عزلة إيجابية وليست سلبية، وليتابع الطريق بعدها بما يحمله من الحق.

---

(١) محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (١/ ١٧)، تحقيق: د. عبد العزيز القارئ، المكتبة العلمية، المدينة ١٣٩٦هـ.

(٥)

السرية والعلنية

إن مثل هذا الدين لا يعجب الملأ الذين يستكبرون في الأرض ولا يصلحون، وسيحاربونه بكل أنواع المحاربة، وقد كان رسول اللّـه ﷺ متوقعًا لهذا الأمر، فبدأ دعوته سرًّا، بدأ بمن يليه ويأنس منه الإجابة، ويتفرّس فيه القبول، وقد أسلم في بداية هذه المرحلة كبار الصحابة وخيار المسلمين مثل السيدة خديجة رضي الله عنها، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد اللّـه ... وفي هذه المرحلة السرية كان المسلمون يخفون إسلامهم، ويخفون عددهم، ويُصلّون سرًّا، ركعتين في الغداة، وركعتين في العَشِيّ، وفي رواية عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال: «استخفينا بالإسلام سنة، ما نصلي إلا في بيت مغلق، أو شِعب خال، ينظر بعضنا لبعض»[(١)]، والدليل على سرية الدعوة في أول أمرها قول عمرو بن عَبْسة السلمي عندما أسلم: «فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام»[(٢)]، مع أن العدد كان أكثر من أربعة، ولكن الرسول ﷺ لم يخبره إلا بأسماء أبي بكر وبلال، وهناك غير عمرو بن عبسة من كان يظن أنه رابع أربعة أو خامس خمسة في الإسلام، وقد حدد ابن إسحاق هذه المرحلة بثلاث سنوات، وحددها البلاذري بأربع سنوات.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف (١/ ١١٥)، تحقيق: محمد حميد اللّـه، دار المعارف، مصر دون تاريخ.

(٢) د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٤٠)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة ١٩٩٣م، وسنذكرها بعد (بالسيرة الصحيحة).

وانتهت هذه المرحلة السرية بنزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فخرج رسول اللَّـه ﷺ حتى صعد الصفا وهتف: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدِّقيّ؟»، قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك، أما جمعتنا إلا لهذا! ثم قام ...[1].

مشروعية الدعوة وأسبابها:

إن الدعوة في بداية أمرها كالنبتة التي تحتاج لحماية ودفء حتى تنمو وتكبر ويشتد عودها، ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، ويتمنى أعداء الإسلام استئصال هذه النبتة قبل أن تقوى وتستعصي على الكسر أو الاقتلاع، فمن الحرص على حماية الدعوة أنها تلجأ في الظروف الصعبة إلى السرية حتى يجتمع لها العدد، ويطمئن صاحب الدعوة إلى قوتها وأنها تجاوزت مرحلة الخطر، فإن القلة مدعاة للخوف على الدعوة حتى لو كانت في مرحلة العلنية، وهذا ما جعل رسول اللَّـه ﷺ خائفًا على أهل بدر لقلتهم، ولأنهم قاعدة الإسلام الأولى، ومن الواجب على المسلمين في كل وقت تفويت هذه الفرصة على أعداء اللَّـه، وستبقى هناك أمور سرية تعلمها القيادة، وقد أسلم أبو ذر الغفاري رضي الله عنه في الفترة العلنية حسب قول ابن حجر، ولكن طريقة رؤيته للرسول ﷺ كانت سرية، وقد قال له رسول اللَّـه ﷺ: «اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل»[2]، وكانت الهجرة إلى الحبشة سرًّا، وكانت بيعتا العقبة الأولى والثانية سرًّا، وقد كتم الحَجَّاج بن علاط السلمي إيمانه بعد فتح خيبر حتى دخل مكة وجمع أمواله،

---

(١) السيرة الصحيحة (١/ ١٤٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب: ٣٢٦١.

وحتى بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة بقيت جوانب سرية لا يطلع عليها إلا خواص المسلمين الذين حول الرسول ﷺ، ولابد من السِّرِّيَّة في قتال العدو وأمور الأمن والخوف، ولم يكن رسول اللَّـه ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها[1]، وهكذا كانت سرية عبد اللَّـه بن جحش، وما فعله نعيم بن مسعود في الخندق، كل هذا يدل على بقاء السرية ولكن في نطاق محدود، وعن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول اللَّـه ﷺ: «إنه تأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية أو السريانية؟»، قلت: نعم ...[2]. وقد جاء في القرآن في قصة مؤمن آل فرعون، وأنّه كان يكتم إيمانه، وقول أصحاب الكهف: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي من خاف في بعض البلدان والأوقات، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه، والتقية لا تُحمل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم. يقول ابن تيمية: «فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح، والعفو عمن يؤذي اللَّـه ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر ...»[3].

العلنية هي الأصل:

لم يعد رسول اللَّـه ﷺ إلى السرية في الدعوة بعد أن جهر بها إلا في أمور معينة، وأسباب مهمة؛ لأن استمرار السرية في الدعوة يعيق انتشارها، ولا يؤوب إلى الإسلام إلا النفر القليل، والإسلام ليس حزبًا سياسيًّا له أهداف دنيوية، بل

---

(١) يقول مثلاً – إذا أراد غزوة حنين –: كيف طريق نجد ومياهها ومن بها من العدو ونحو ذلك، وقال ﷺ: «الحرب خدعة». انظر: زاد المعاد (٣/ ٩٦).

(٢) ابن سعد، الطبقات، الطبقة الثالثة ممن أسلم قبل الفتح، مخطوط.

(٣) الصارم المسلول: ٢٢١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١٩٦٠م.

هو دعوة عامة للناس لإنقاذهم من النار فلابد أن تنتشر الدعوة، ويقال للناس هذا هو الدين الذي جاء ليحرر الإنسان من عبادة غير اللَّـه، وكلما قويت شوكة الدعوة اختفت السرية لتكون في أضيق نطاق.

لقد أوغل الإسلاميون في العصر الحديث في موضوع السرية، وطال أمدها، وأصبحت وكأنها جزء من العمل، اجترارًا للماضي وتقليدًا للبدايات، مما أضعف الدعوة وجعلها محصورة ومحاصرة، وإذا كانت البداية بحاجة إلى سرية، فإن استمرارها يجعل الدعوة في حالة خوف دائم وترقب، ويجعل أفرادها يعيشون أوهامًا ويصابون بالجبن والحذر الشديد، وربما تستمرئ القيادة هذه السرية لتجعل الدعوة (منجمًا للأسرار) فيحب الفرد أن يتدرج كي يتعرف على هذه الأسرار وعلى هذه الدوحة الباسقة!!

ومن مساوئ تضخيم السرية أنها توهم الناظر إلى هذه الدعوة سواء أكان من داخلها أو خارجها، أنها جسم صلب، وأنها قوية منتشرة في كل موضع من البلاد، فالمتعاطف معها يجمح به الخيال إلى قرب الانفراج، والعدو يتصورها أكبر من حجمها فيستعد لها بكل إمكاناته ويحاربها بكل الوسائل خوفًا منها.

وهكذا تعيش الدعوة بين صفوف فئة قليلة من الشباب المتعلم، ولا تستطيع الخروج إلى جماهير الأمة ليلتف الناس حولها، يؤازرونها، ويحملون همومها، فتقوى وتشتد، وإن ابتعاد الفرد عن حلقات العلم والتربية وابتعاده عن الصلة مع قادة الدعوة سيؤدي به إلى السطحية في التفكير، والتربية المشوهة.

إن الإسلام بطبيعته لا يقبل العيش في دهاليز السرية إلا أن يكون تخطيطًا سليمًا لا يطلع عليه أعداء الإسلام، أو تخطيطًا «لأهل البصيرة وعلم الحياة ومعرفة العصر، وفي مشروع لترقي المسلمين يتضمن بيان مسائله، وإقناع أهل القدرة على تنفيذه ..»[1].

---

(١) رشيد رضا، مجلة المنار (م٣٣/ ١٠).

إن أي خلل في حسابات السرية والعلنية سيكون له نتائج وخيمة على العمل الإسلامي، وإن بحث أمور الدعوة داخل القوالب الجامدة سوف تأسر المسلم وتجعله في ضيق وحرج، فإذا قلت: نحن في مرحلة سرية، فهل يعني هذا السرية المطلقة؟ وإذا قلت: نحن في مرحلة علنية فهل يعني هذا العلنية المطلقة؟ إن الأمر بحاجة إلى اجتهاد ونظر في مراحل الدعوة، ومراحل التاريخ الإسلامي وكلام العلماء المجتهدين، ولابن تيمية / كلام جيد في كتابيه «اقتضاء الصراط المستقيم» و«الصارم المسلول» حول هذه الموضوعات، ولا يقال في هذا المجال: نكتفي بثلاث سنوات قياسًا على ما حدث في أول الدعوة، إن هذه سطحية وسذاجة كما أنه من الغباء أن نحدد ثلاث عشرة سنة لتأسيس دولة، فالقضية كلها تتعلق بمدى القوة والضعف عند المسلمين والظروف المحيطة بهم، وإن من أكبر الخلل أن يكون الفكر أسيرًا لأشكال معينة، أو يتحول إلى تلقين تبسيطي، وتختزل البرامج فيه إلى (شعارات).

وقد اتّسمت دعوة الرسول ﷺ منذ اليوم الأول بالوضوح في أمور العقيدة، وخوطب العدو الأول بالاسم، وكان المسلمون يباينون الكفار، والذين هاجروا إلى الحبشة مع ضعفهم كانوا يتكلمون بدينهم أمام النصارى. وبقيت السرية في أمور محدودة خاصة تتعلق بتحرك القيادة أو ما يتعلق بأمن المجتمع والدولة.

وإن من أكبر أسباب قوة الدعوة اتصالها بالجماهير المسلمة، وبناء الثقة والتوعية، ورفع مستواهم إلى قضية (حمل الرسالة) والدفاع عنها، والالتفاف حولها. ولا يكون هذا إلا بالدعوة العلنية، ولا يكون هذا إلا بعلماء ودعاة قد أتقنوا فنون العلم، وأتقنوا الدعوة وأصولها، وتجميع الناس حولها.

* * *

(٦)

إعراض قريش

صدت قريش عما جاء به الرسول ﷺ – إلا قليلاً منهم – وأظهرت العداوة لرسول اللّـه ﷺ، وكانوا كما ذكر اللّـه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝﴾ [المدثر: ٤٩ – ٥١]، إن داء قريش هو داء الأمم السابقة، وهو داء الأمم المعرضة عن الرسالة في كل زمان، فالشهوات والشبهات هي هي ولكنها تختلف في الشكل والكم، ولا فرق بين إعراض ثمود وعاد وإعراض الجاهلية المعاصرة، ففي كل زمان يوجد من (الملأ) من لا يعجبه دعوة الأنبياء، لأن هؤلاء (الملأ) غارقون في الترف ومباذل الدنيا وزينتها، غارقون في الفواحش والمنكرات، مستكبرون عن اتباع الأنبياء. وقد ذكر في القرآن الكريم أسباب إعراض الناس عن دعوة الحق وفي هذا الذكر تسلية لرسول اللّـه ﷺ وتذكير بما قاسى إخوانه من الرسل، وتاريخ الأنبياء متشابه الفصول والحلقات، وربما يتساءل القارئ: كيف تتميز قريش بصفات عالية بين العرب وعندما جاءتهم الرسالة أعرضوا عنها؟

والجواب: أن كل قبيلة سيكون فيها المستكبرون أولو النَعمة، وأصحاب الشهوات، ولكن العبرة في عموم الخير، وفي خصائص الذين أسلموا وأحوالهم الإيمانية.

ومن أسباب الإعراض التي ذكرها القرآن الكريم:

١ – الكِبْر والعناد: فبعض الناس يستكبرون عن الخضوع لشريعة سماوية، وقد نفخ الشيطان فيهم أنّ باستطاعتهم وضع قانون من عند أنفسهم، ولا يحتاجون للوحي الإلهي وهم يعلمون أن الشريعة السماوية ستمنعهم من

شهواتهم وفسادهم الأخلاقي، وستمنعهم من تعبيد الناس لمصالحهم وأهوائهم. قال تعالى عن هؤلاء: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾ [المؤمنون: ٦٦ – ٦٧]، وقال تعالى واصفًا حال هؤلاء المعاندين: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ [الحجر: ١٤ – ١٥].

٢- **(بشرية) الرسل:** فالبشر الذين يجهلون قيمة الإنسان ولا يدركون تكريم اللَّـه له، يستغربون أن يرسل اللَّـه بشرًا رسولاً من عند اللَّـه، وينزل اللَّـه عليه كتابًا ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ۝٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤]، إنهم يريدون ملكًا، أو شخصًا ليس من طينة البشر، ولا يعلمون أن العبودية الخالصة للَّه ترفع الإنسان إلى أعلى عليين، والرسول لا يكون إلا من جنس المرسل إليهم ليحصل الاتصال، ولو كان أهل الأرض ملائكة لأرسل لهم ملكًا.

٣- **خوف أصحاب النفوذ والزعامة على رئاستهم؛** لأنهم يعلمون أن هذه الرئاسة قائمة على مبادئ جاهلية وعلى الاستعلاء والظلم والفخر بالآباء، بينما الرفعة في الإسلام لأصحاب العلم والتقوى، وكذلك الخوف على مصالحهم الاقتصادية، مع أن مصالحهم إنما جاءت عن طريق الدين، فاللَّـه هو الذي يسّر لهم حرمًا آمنًا، مما جعل العرب تحترم قريشًا، وتسير تجارتها شمالاً وجنوبًا، ولا يعترضها أحد، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ١ – ٤]، ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

٤- الإلف والعادة واتباع الآباء: وهي من أكبر العوامل في الصد عن دين اللَّـه، ومن أكبر آفات العقل البشري؛ لأنها تعطل تفكير الإنسان، فهو يرى أن من أصعب الأشياء الخروج عن مألوفاته، وإن ذهاب روحه أهون عليه من تغييرها، إلا أن يدخل في قلبه ما يقتلعها، وأكبر مثال على ذلك أبو طالب عم الرسول ﷺ، فإنه بالرغم من حُنُوِّهِ وعطفه على ابن أخيه والوقوف معه أمام قريش، ولكنه وجد صعوبة في ترك دين آبائه وأجداده، وقد أشار القرآن إلى مرض الآبائية بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤].

٥- تعظيم المال والثروة والجاه: وهي مفاخر جاهلية ومقاييس جاهلية؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١]، أي لو أن هذا القرآن أو هذه النبوة أنزلت على رجل كبير القدر في مكة أو الطائف لكان الأمر معقولاً، واتباعه ميسورًا، أما أن ينزل على رجل لا ثروة عنده وليس من أصحاب الجاه الزعامة، فهذا أمر غريب، فالدنيا عندهم هي مراكزهم الاجتماعية ومكاسبهم المالية، بل من أسباب إعراضهم أن بعض من يتبع النبي ﷺ هم أناس من الضعفاء، ومن غير ذوي السيادة والجاه ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

ومما نستفيده من ذكر اللَّـه تعالى حكاية عن المعرضين أنه سيوجد في كل زمان ومكان أناس يصدون عن الهدى بأمثال هذه الشبهات، ويعرضون عن الوحي لاستغراقهم بالملذات، وانشغالهم بالدنيا، أو للكبر الذي في نفوسهم ترفُّعًا عن الانقياد، وخاصة في هذا العصر الذي سُخِّر فيه الإعلام لإبعاد الناس عن الدين، وصار للمجرمين في الأرض صولة وجولة، قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٣]، أي أنه لم يتواصوا لكنهم فعلوا فعلاً كأنه فعل من تواصى، والعلة في ذلك: أن جميعهم طاغ، والطاغي: المستعلي المفسد العاتي على اللَّـه[1]، فما على المسلم إلا أن يستخدم أحسن الوسائل في الدعوة، ويصبر على ذلك

(١) تفسير ابن عطية (١٤/ ٣٨)، بإشراف مجموعة من المحققين، الدوحة، وزارة الأوقاف ١٩٧٧م.

ويستمر عليها، ولا تذهب نفسه حسرات على الذين لا يستجيبون ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢]، وليفكر في قبيل آخر، ولا ييأس فلعل اللَّـه يأتي بالخير من أناس آخرين، والذي يظن أن الناس كلهم سيتحولون إلى الإيمان والاتباع للرسالة فإنه واهم، فالمهم أن يعرض الدعوة كما أمر، ويتمثلها عمليًّا حتى لا يكون فتنة للكافرين، يقولون: «لو كان هذا الدين صحيحًا لما كان أهله على هذه الحال»، ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ [الطور: ٢٩]، يقول ابن عطية: «هذا أمر لرسول اللَّـه ﷺ بالدعاء إلى اللَّـه تعالى ومتابعة نشر الرسالة»[1].

٦- **إن الحسد والجهل** قد يكونان وراء التكذيب والخصومة، فالجاهل لا ينقاد للحجة بل يطلب ما يهلكه عنادًا، ففي قصة نوح عليه السلام قال قومه: ﴿قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، والحسد هو الذي جعلهم يقولون زورًا وبهتانًا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦]، إنه ليس لبشر أن يأتي بمثل هذا القرآن الذي تحدث عن أسرار الكون وأسرار العمران البشري، وتحدث عن غيوب لا يعلمها إلا اللَّـه سبحانه وتعالى، وهو قبل ذلك معجزة بيانية تحدى فيها العرب والناس أجمعين.

* * *

(١) تفسير ابن عطية (١٤/ ٦).

(٧)

المحنة والابتلاء

مضى رسول اللّـه ﷺ في دعوته غير عابئ بإعراض قريش، بل سفّه أحلامهم، وعاب عبادتهم للأصنام، وحذّرهم، فثارت ثائرتهم، وقاموا بحملة إعلامية ظالمة على شخص الرسول ﷺ وعلى دعوته ومن معه من المؤمنين، ووقع ما قاله ورقة بن نوفل: «ما أتى أحد بمثل ما أتيت إلا عودي ...».

كان في قريش زعماء متجبرون، تحجرت عقولهم، وقست قلوبهم، وأخذتهم العزة بالإثم، وسيقولون مثل ما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، وأنّى للذين أبطرتهم النعمة، وعاشوا حياة الترف والزعامة أن يستجيبوا لنداء الوحي ونداء الفطرة، وأنّى لهم أن يفكروا بعقولهم وأن هذه الدعوة خير لهم وستجلب لهم المكانة والمكان ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ومما زاد في ضيق قريش وحنقها أن الإسلام يزداد ولا ينقص، وقد أسلم عدد في كل فرع من فروعها، وركبت قريش رأسها، وقامت كما قام أسلافها من الذين عادوا الرسل بحملة تشهير واسعة، واتبعت كل طرق الإيذاء والمكر، منها:

١- **السخرية:** وهي التّهكُّم المؤذي، واستصغار شأن النبي ﷺ والذين معه: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، وهو أسلوب قديم جديد، فأمثال هؤلاء يسخرون اليوم من العلماء والدعاة، كما يسخرون من المتدينين ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

٢- **الاتهام بالكذب:** ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]، ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

٣- الاتهام بالجنون: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

٤- الاتهام بالسحر: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

٥- الاتهام بالكهانة والشعر: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٢].

٦- وتنتقل قريش، وينطلق الملأ إلى أساليب أخرى، حين لا تنفع أساليب التشهير، فينتقلون إلى التهديد والوعيد، وإلى الإيذاء والقتل، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق: ٩ - ١٠]، قال أبو جهل: «لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن على عنقه»[(١)].

يقول الصحابي الجليل عبد اللَّـه بن مسعود: بينما رسول اللَّـه ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم[(٢)]، فلمّا سجد رسول اللَّـه ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة رضي الله عنها - وهي جويرية - فأقبلت تسعى، وثبت النبي حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول اللَّـه ﷺ الصلاة قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش» ثم سمَّى: «اللهم عليك بعمرو بن هشام[(٣)]،

---

(١) الألباني، صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٣٢).

(٢) هو عقبة بن أبي معيط.

(٣) هو أبو جهل.

وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد»، قال عبد اللَّـه بن مسعود: فواللَّـهِ لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب - قليب بدر - ثم قال رسول اللَّـه ﷺ: «وأُتْبِعَ أصحابُ القليب لعنة»[1].

ولجأت قريش إلى العنف الشديد مع أصحاب النبي ﷺ، وخاصة الضعفاء منهم والذين ليس لهم قبائل تحميهم، مثل: بلال وخباب وعمار، يقول عبد اللَّـه ابن مسعود: «فأما رسول اللَّـه ﷺ فمنعه اللَّـه بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه اللَّـه بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في اللَّـه، وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد، أحد»[2].

ثم جربت قريش المفاوضات والضغط على أبي طالب ليسكت محمدًا ﷺ فلم ينفع ذلك، ثم طلبوا المعجزات المادية جدلاً وخصامًا، وإذا جاءتهم فلن يؤمنوا وسيقولون: هذا سحر، وبعد إسلام حمزة وعمر رضي اللَّـه عنهما، وهجرة المسلمين إلى الحبشة، وفشل وفد قريش من إرجاعهم، قررت قريش قتل الرسول ﷺ كما يروي الزهري، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول اللَّـه ﷺ شِعبهم ويمنعوه، فاجتمعوا على ذلك مؤمنهم وكافرهم، هنا تفتقت قريش عن كيد عظيم، وذلك بأن يحاصروا المسلمين الحصار الاقتصادي، فلا يبايعوهم ولا يخالطوهم ولا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم حتى يسلموا رسول اللَّـه ﷺ إليهم، وكتبوا ذلك في صحيفة

---

(١) فتح الباري (٥/ ٥٩٤)، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.

(٢) السيرة الصحيحة (١/ ١٥٤)، والحديث في مسند أحمد (١/ ٤٠٤)، بإسناد حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وعلقوها في جوف الكعبة، وانحاز بنو هاشم مؤمنهم وكافرهم إلى شعب أبي طالب، واشتد البلاء عليهم ثلاث سنين، حتى تلاوم رجال قريش على هذه الفعلة، ونقضوا الصحيفة وانتهت المقاطعة.

لم يزدد المسلمون مع هذه الآلام إلا قوة وصلابة ومع كل ما فعلت قريش، فإنها كانت تصدر عن ضعف أمام قوة وصمود هذه الدعوة، وكانت تصرفاتها تصرفات تدل على الغيظ والحنق وانفلات الأمر من يديها، ولم تدر أن هذا أمر قد قدره اللّـه وأحصاه، والحق يعلو على الباطل ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]. وخلال كل هذه المعاناة لم يفقد الرسول ﷺ صبره ولا أفلت منه زمام لسانه أو يده ولا تسرب اليأس إلى نفسه.

*** ظاهرة الابتلاء:**

الابتلاء أو المحنة ظاهرة سننية ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وإن ما يعتري البشر من نقص في الأنفس والأموال، وما يصيبهم من الفقر أو المرض،كل هذا من الابتلاء، ولكن المؤمن يصبر ويصابر، ويفوز بالدرجات العلى في الدنيا والآخرة، وقد يكون الابتلاء فرديًّا، وقد يكون جماعيًّا، ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقد يُبتلى المؤمن خاصة ليمحص اللّـه الصفوف، ولتعود شخصية المسلم بعد الابتلاء أقوى وأصفى، وليعلم اللّـه المنافقين والمتمردين، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد: ٣١]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢]، ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقد ابتلي الأنبياء وأولهم آدم عليه السلام، ثم نوح عليه السلام، بخلاف قومه عليه وعصيان ابنه له، ثم إبراهيم عليه السلام، أرادوا إحراقه، فنجّاه اللّـه إلى الأرض المباركة، ثم ابتُلِيَ بالذبيح إسماعيل عليه السلام، ثم يعقوب عليه السلام بفقده يوسف، ثم أيوب وموسى وعيسى عليهم السلام، وابتُلِيَ خاتم الأنبياء

محمدًا ﷺ، وقد ثبت في الحديث: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلَى الرجلُ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[1]، وقال ﷺ: «إذا أحبَّ اللَّـهُ قومًا ابتلاهم»[2].

*** فوائد الابتلاء:**

يتربى المسلم من خلال المعاناة والصبر، وتتكون لديه خبرة وتجربة، ويتعلم الطرق الصحيحة في دفع الشرور، واستجلاب الخير، ومن أعظم فوائد الابتلاء، تمحيص الصف المسلم ليظهر من هو في إيمانه كالجبال الراسيات ومن هو دخيل صاحب أهواء ومطامع.

يقول الإمام العز بن عبد السلام: «للمصائب والبلايا والمحن فوائد تختلف باختلاف رتب الناس:

أحدها: معرفة عز الربوبية وقهرها.

الثاني: معرفة ذل العبودية وكسرها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦]، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه.

الثالث: الإخلاص للّه تعالى، إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا مُعتمد في كشفها إلا عليه، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]،

الرابع: التضرع والدعاء ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩].

---

(١) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٢٥)، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥م.

(٢) الألباني، صحيح الجامع الصغير (١/ ١٣٩)، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦م.

الخامس: تمحيصها للذنوب والخطايا ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، «ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمه والشوكة يشاكها إلا كفّر بها عن سيئاته» رواه مسلم(١).

السادس: ما في طيّها من الفوائد الخفية ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم عليه السلام كان في طي تلك البلية أن أخدمها هاجر، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما السلام، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين، فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية.

السابع: إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر، والفخر والخيلاء، والتكبر التجبر ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرعها مرة، وتعدلها مرة، حتى تهيج ...»(٢).

الثامن: الرضا الموجب لرضوان اللّـه تعالى، فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله الرضا»(٣).

---

(١) الذي ورد في مسلم: «ما يصيب المؤمن وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كُفّر به عن سيئاته». انظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٠).

(٢) في البخاري: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح مرة، وتعدلها مرة ..». انظر: الفتح (١٠/ ١٠٧).

(٣) جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل (٢/ ٣٢٩)، دار الفكر، بيروت، ط٢ ١٩٧٨.

*** هل يستمر الابتلاء وما هي عاقبته:**

إذا كان الابتلاء من سنن اللَّـه الكونية، فإن من سننه أيضًا ومن رحمته تعالى بعباده أن يكون الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والتمكين بعد الخوف، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥].

وفي الحوار الذي جرى بين هرقل (ملك الروم) وأبي سفيان بن حرب، قال هرقل يسأل عن رسول اللَّـه ﷺ: «كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال، يُدال علينا المرة وندال عليه الأخرى، قال: كذلك الرسل تُبتلَى ثم تكون لهم العاقبة».

ومن سننه سبحانه وتعالى أن المحن والابتلاءات لا تكون قاسية جدًّا ومتتالية، فإنها عندئذ تكون فوق طاقة البشر، وقدتحطم الفرد والجماعة، يقول ابن القيم معلّقًا على غزوة أحد، وكيف أن اللَّـه سبحانه وتعالى لا يبتلي المؤمنين بالهزيمة تلو الهزيمة: «فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله ولا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد إدالة مستقرة لا يقوم بعده أبدًا فقد ظن باللَّـه ظن السَّوْء»[1]، وإذا لم يكن ثَمَّ ابتلاء أبدًا فإن المرء يعيش في أمن واطمئنان، وقد يؤدي به ذلك إلى الدعة والسكون، فهو شبيه بتحرك الإنسان بين الخوف والرجاء، فلو غلب عليه الخوف لما كان شخصية سوية، وإذا غلب عليه الرجاء استهتر وتفلت: فالابتلاء في حده الوسط يصقل شخصية المسلم، «ويفجر روح

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٩).

المقاومة والإصرار، تلك الروح التي كثيرًا ما تظل هاجعة خامدة إلى أن تأتيها صدمة قوية توقظها من سباتها»[1].

*** هل يُطلب البلاء:**

لا ينبغي للمسلم أن يطلب البلاء أو يتمناه؛ لأن الإنسان لا يدري هل يصبر أم لا؟ وهل يتحمل الصدمة ويستفيد منها أم لا؟ وقد ثبت في «الصحيحين»: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا اللَّـه العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[2]، وقال ﷺ محذرًا من الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»[3].

إن المسلمين الذين يقولون للطغاة: افتحوا السجون، فنحن مستعدون لها، ونصبر إن شاء اللَّـه على البلاء، ثم تبدأ الكتابات التي يكثر فيها (النواح) وتضخيم الحزن، وما فُعل في السجون، هؤلاء مخطئون بل يُكره للمسلم أن يتعرض للبلاء، ويجب عليه ألا يعرض نفسه للذل إن أمكنه ذلك، ولكن إذا ابتُلِيَ صبر، وبحث عن المخرج، كما قال عمر رضي الله عنه: «نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّـه إلى قدر اللَّـه»، قالوا: كيف يُذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[4]، والمؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّـه من المؤمن الضعيف ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الشورى: ٣٩].

* * *

(١) مجلة البيان: (٨٤/ ١٢)، مقال د. عبد الكريم بكار.
(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٤٦).
(٣) ابن تيمية، الفتاوى (١٠/ ٣٨).
(٤) الألباني، صحيح الترمذي (٢/ ٢٥٤).

(٨)

الخروج من المأزق

*** حماية الأقرباء:**

لم يقف رسول اللَّـه ﷺ من المحن التي تعرض لها المسلمون والمستضعفون موقف المتفرج، ولم يَخْفَ على رسول اللَّـه ﷺ حجم الابتلاء، فهو يبحث عن السبل التي تُخرجهم من هذا الضيق، والوسائل التي تخفف عنهم هذه المعاناة، وإذا كان الابتلاء من سنن اللَّـه سبحانه لما في طيه من الفوائد، فإن من سننه أيضًا الأخذ بالأسباب، ومدافعة القدر بالقدر، كما يُدفع المرض بالدواء، والعدو بالجهاد والاستعداد، ومن أعظم الوسائل في مدافعة الباطل، الثقة بوعد اللَّـه ونصره لأوليائه، وقد كان رسول اللَّـه ﷺ مطمئنًّا أشد الاطمئنان أن هذا الدين سوف يظهر، فكان يُلقي روحًا من روحه على الصحب الكرام.

ومن الوسائل التي استفاد منها رسول اللَّـه ﷺ: قبول حماية الدعوة من أقربائه بني هاشم المسلم منهم والكافر، فقد قاموا بمؤازرته – عدا عمه أبي لهب – ولكن عمه أبا طالب كان أكبر عون له، وأكبر مدافع عنه، وقد قبل رسول اللَّـه ﷺ هذه النصرة، واستفاد من عصبية بني هاشم، وقد تمنى أنبياء سابقون مثل لوط عليه السلام مثل هذه الحماية ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠]، قال في تفسير «أضواء البيان» معلقًا على هذه الآية: «وهذه الآيات القرآنية تدل على أن المسلمين قد تنفعهم عصبية إخوانهم الكافرين، ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم، ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف، وبنو نوفل بن عبد مناف، عرف النبي ﷺ لبني المطلب تلك

المناصرة، فأعطاهم من خُمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام». وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إن اللَّـه ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، وفي المثل: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار»[1]، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ ... [هود: ٩١]، قال الشيخ الشنقيطي: «منع اللَّـه شعيبًا من الكفار بسبب العواطف العصبية والأواصر النسبية»[2]. يقول ابن القيم ⁄: «حمى اللَّـه رسوله بعمه أبي طالب؛ لأنه كان شريفًا مطاعًا في أهله، وأهل مكة لا يتجاسرون على مكاشفته بشيء من الأذى»[3].

فما الذي يمنع المسلم اليوم من الاستفادة من أقربائه أو عشيرته لحماية الدعوة وحمايته هو شخصيًّا إذا لم يكن هناك تنازل عن المبدأ أو الدين، وعندما لا تتم هذه الاستفادة في ظروف المحنة والابتلاء فهذا إما لأن المسلم يجهل هذه الوسائل أو يظن أنها تنافي الولاء والبراء، هذا إذا وجدت هذه القضية، أو عُرِضت على المسلم.

*** الهجرة إلى الحبشة:**

عندما لجَّت قريش في خصومتها كان بإمكان قلة من المسلمين وهم من خيرة شباب قريش أن يدافعوا عن أنفسهم، ويديروا معركة يمنعون بها سفهاء قريش من الاستمرار في الاستهزاء والإيذاء، ولكن أوامر الرسول ﷺ كانت واضحة وصارمة في عدم استعمال القوة في هذه المرحلة واللجوء إلى الصبر، ولعل مكة كانت تمنى جرَّ المسلمين إلى مثل هذه المعركة قبل أن يتمكنوا.

---

(١) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان (٣/ ٤٢).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤١).

(٣)زاد المعاد (٣/ ٢٢).

رأى رسول اللَّـه ﷺ ما عليه حال المسلمين، فأشار عليهم بالخروج والالتحاق بأرض الحبشة، كما جاء في حديث أم سلمة رضي اللَّـه عنها، أن رسول اللَّـه ﷺ قال لهم: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظْلَمُ أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل اللَّـه لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»، تقول رضي اللَّـه عنها: «فخرجنا أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنًا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا»[1].

وقد ثبت في السيرة أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين: الأولى في السنة الخامسة من المبعث، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، والثانية في السنة السابعة من المبعث، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والأبناء، وقيل إن عدة النساء ثماني عشرة امرأة أقاموا في الحبشة عند ملك عادل، يعبدون ربهم ويقيمون شعائر دينهم، وقد حاولت قريش استرجاعهم، وأرسلت وفدًا لذلك؛ لأنها تدرك خطر حصول المسلمين على مأوى لهم قريب من مكة، ولكنها فشلت في ذلك، ورفض النجاشي عرض وفد قريش، وسمع من المسلمين القرآن وما يقول في عيسى عليه السلام، فبكى وبكت قساوسته، وكان / موحدًا، وإن صراحة المسلمين واستعلاءهم في بيان دينهم وعقيدتهم، في دار الغربة لشيء يدعو للإعجاب، فلم يضعفوا ولم يداهنوا.

رجع بعض المسلمين إلى مكة عندما سمعوا إشاعة تقول أن قريشًا قد أسلمت، وكان رسول اللَّـه ﷺ قد قرأ سورة النجم وسجد في موضع السجود وسجد كل من كان حاضرًا من قريش[2]، فظن من ظن أن قريشًا أسلمت، وتبين

---

(١) انظر: د. سليمان السعود: أحاديث الهجرة: ٢٢، د. أكرم العمري: السيرة الصحيحة (١/ ١٧٠).

(٢) ربما من هول الموقف وأثر الآيات.

للمسلمين أن الخبر غير صحيح، فدخل بعضهم بالجوار، ورجع البعض الآخر إلى الحبشة، ثم إن بعض مهاجري الحبشة قدموا المدينة قبل بدر وحضروها، ثم قدمت الدفعة الأخيرة وعددهم ستة عشرة في العام السابع للهجرة أثناء غزوة خيبر، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقد أرسلهم النجاشي في سفينتين إلى ميناء قرب المدينة.

أراد أبو بكر ﷺ الهجرة، فخرج حتى إذا بلغ بَرْك الغماد[1] لقيه ابن الدَّغِنّة، وهو سيد القارة[2]، فقال له: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرج ولا يُخرج، وأنا لك جار، فرجع أبو بكر، وأعلن ابن الدغنة أمام قريش جواره له، ووافقت قريش على أن يعبد أبو بكر ربه في داره ولا يستعلن[3].

لم يكن غالب الذين هاجروا إلى الحبشة من المستضعفين في مكة، بل هم من عِلْية بيوتات قريش، فقد هاجر عثمان ﷺ وزوجته رقية بنت رسول اللَّـه ﷺ، وخالد بن سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ولكن لعل رسول اللَّـه ﷺ أراد تخفيف غربتهم، وإبعادهم عن أذى السفهاء، وربما يجدوا فرصة لنشر الدعوة في تلك البلاد، وربما كان رسول اللَّـه ﷺ يخطط للاستعانة ببعض القبائل العربية أو المدن (الطائف مثلاً) فأراد إفراغ الساحة من أبناء القبائل القرشية حتى لا تتخذهم قريش غرضًا للضغط عليه. وقول الرسول ﷺ عن الحبشة أن فيها ملكًا عادلاً لا يظلم عنده أحد، يدل على أن الحبشة أكثر أمنًا لهؤلاء الأصحاب من داخل

---

(١) اسم مكان على بعد خمس ليال من مكة باتجاه اليمن.

(٢) قبيلة وهم عَضَل والدِّيش، سموا قارة لاجتماعهم، وقد اشتهروا بالرمي.

(٣) السيرة الصحيحة (١/ ١٧٠).

الجزيرة، فربما تقوم بعض القبائل بتسليمهم إلى قريش هدية ومجاملة، وربما يكون من أهداف الهجرة إلى الحبشة الحط من مكانة قريش حين يهاجر أبناؤها إلى بلاد بعيدة[1]، وإن اختيار الحبشة دليل على معرفة الرسول ﷺ بما يجري حوله في المناطق القريبة والبعيدة، والحبشة كانت متجرًا لقريش.

إن الهجرة من الوسائل الشرعية التي يحبها اللَّـه تعالى، يبتعد المسلم فيها عن الفتنة، ويعبد اللَّـه سبحانه وتعالى كما أمر، فهي ليست مجرد فرار، ولكنها ذهاب إلى أمن، «قال السهيلي: الخروج عن الوطن – وإن كان الوطن مكة – إذا كان الخروج فرارًا بالدين – وإن لم يكن إلى إسلام – فإن الحبشة كانوا نصارى يعبدون المسيح[2]، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد وأوذي على الحق مؤمن، وهذه الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة»[3].

ومن آثار هذه الهجرة إسلام عمرو بن العاص، وكان من قصته أنه اقترح على أصحاب له بعد معركة الخندق أن يلحقوا بأرض الحبشة، فإن انتصر محمد كانوا هناك، وإن انهزم رجعوا إلى مكة، فخرجوا إلى الحبشة، يقول عمرو: فواللَّـه إنا لعنده (النجاشي) إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، قد بعثه رسول اللَّـه ﷺ في شأن جعفر وأصحابه، فدخلت على النجاشي فقلت له: إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو عدو لنا فأعطنيه أقتله. قال: فغضب ثم مَدَّ يده فضرب بها أنفه وقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، فقلت: أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه

---

(١) انظر: حول موضوع الهجرة إلى الحبشة، د. سليمان بن حمد العودة: الهجرة الأولى في الإسلام، سلمان العودة: الغرباء الأولون، محمد متولي شعراوي: الإنسان الكامل محمد ﷺ.

(٢) الملك النجاشي كان موحدًا، وربما بعض قساوسته، أما البقية فكما ذكر السهيلي.

(٣) سليمان السعود: أحاديث الهجرة: ٧٥.

فإنه واللّـه لعلى الحق، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته وكتمت إسلامي عن أصحابي»[1].

يقول ابن تيمية معلّقًا على حالة النجاشي / : «وكذلك الكفار، من بلغه دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنه رسول اللّـه فآمن به، وبما أنزل عليه واتّقى اللّـه ما استطاع كما فعل النجاشي، ولم يمكنه الهجرة إلى دار الإسلام ولا التزام شرائع الإسلام، وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الإسلام، فهذا مؤمن من أهل الجنة، كما كان مؤمن آل فرعون مع قومه، وكما كانت امرأة فرعون، والنجاشي وإن كان ملك النصارى، فلم يطعه قومه، بل إنما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك من يصلي عليه، فصلّى النبي ﷺ عليه بالمدينة[2].

وقد أثنى رسول اللّـه ﷺ على هذه الهجرة، وأثنى على أصحابها، فقد جاء في صحيح البخاري: «دخل عمر على حفصة فوجد عندها أسماء بنت عميس فقال لها: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول اللّـه منكم، فغضبت أسماء وقالت: كلا واللّـه، كنتم مع رسول اللّـه يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في اللّـه وفي رسول اللّـه ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي وأسأله، واللّـه لا أزيد ولا أكذب، فقال لها رسول اللّـه ﷺ: ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

وسنتكلم – إن شاء اللّـه – بشيء من التفصيل حول الهجرة وأهميتها عند الحديث عن الهجرة إلى المدينة.

---

(١) سليمان العودة: الهجرة الأولى إلى الإسلام: ١٦٣.

(٢) المصدر السابق: ١٤٩.

*** دعوة القبائل:**

كان موسم الحج فرصة للرسول ﷺ للاجتماع بقبائل العرب ودعوتهم، فلعل الخير يأتي من إحدى هذه القبائل، وكان العرب يحجون، وينزلون في مِنًى وعرفات، يحفظون ذلك من بقايا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولكنهم يخلطون عبادتهم بالشرك والجهل الغالب عليهم، وكان ﷺ «يسألهم نُصرته ومنعته»[(١)]، يقول ربيعة بن عباد الدؤلي وهو أحد الشهود الذين رأوا رسول اللَّـه ﷺ وهو يطوف على القبائل: رأيت رسول اللَّـه ﷺ بذي المجاز يتتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى اللَّـه عز وجل، وكان مما يقوله لهم: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا اللَّـه تفلحوا»، والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كذاب، فسألت عنه: فذكروا لي نسب رسول اللَّـه ﷺ، وقالوا: إن هذا عمه أبو لهب[(٢)]، ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»[(٣)]، وقد قاربت بعض القبائل ولم تبعد، ولكن غلبت عليهم العادات القبلية فقالوا: لو كان ما يدعو إليه حقًّا لاتبعه قومه[(٤)].

*** الخروج إلى الطائف:**

وكان أهل الطائف ممن رجا رسول اللَّـه ﷺ أن يستجيبوا له وينصروه؛ وذلك لاستيفاء عناصر التمكين في الأرض، فخرج إليهم، وذلك بعد أن اشتد أذى قريش بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجه السيدة خديجة رضي اللَّـه عنها، اتّجه رسول اللَّـه ﷺ إلى زعماء ثقيف فدعاهم إلى الإسلام، وعرض عليهم القرآن، ولكن كانوا أشد إعراضًا من قريش، وأكثر إيذاءً وصلفاً، فطلبوا منه

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ٢٣٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٤).

(٣) الألباني، صحيح أبي داو (٣/ ٨٩٧)، كتاب السنة، مكتب التربية العربي ١٩٨٩م.

(٤) من القبائل التي دعاها رسول اللَّـه: بنو عامر بن ضبيعة، ومحارب بن حصفة، وغسان ومرة، وحنيفة، وسليم، والحضارمة.

الخروج من بلدهم، وأغروا به صبيانهم وسفهاءهم بضربه بالحجارة، فرجع آسفًا متحسرًا على العباد، وقد ثبت عن عائشة رضي اللَّـه عنها أنها سألت رسول اللَّـه ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة»[1]، وقد ثبت من حديث عائشة هذا في البخاري أن اللَّـه سبحانه أرسل إلى محمد ﷺ ملك الجبال، فقال له: إن اللَّـه قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2]، فقال له رسول اللَّـه ﷺ: «بل أرجو أن يخرج اللَّـه من أصلابهم من يعبد اللَّـه وحده لا يشرك به شيئًا».

لم ييأس رسول اللَّـه ﷺ - وحاشاه من ذلك - وإنما كان يبحث عن أماكن جديدة، لعلها تكون مأوى ومأرزًا للدعوة، ولو أن رحلة الطائف جاءت كما يريد الرسول ﷺ ونجح في مسعاه لكانت ضربة قوية لصلف قريش، وتهديدًا لمصالحها الاقتصادية فأغنياء قريش لهم أموال هناك، لقد كانت محاولة، والرسول سيستأنف خطة الدعوة والاتصال بالناس وسيستمر الصراع مع كبراء قريش.

إن المسلم لا يحصر نفسه في وطن واحد، أو بلد واحد، فأرض اللَّـه واسعة، والناس معادن، ولا ندري من أين يأتي الخير، وإن البحث عن أرض تنطلق منها الدعوة، ويصهر فيها الأفراد ضمن تربية إيمانية، من أساسيات الدعوة، «وعندما هاجر إبراهيم عليه السلام اتخذ بلاد الشام والحجاز موطنًا لدعوته»[3].

وفي رجوعه ﷺ إلى مكة، لم يدخلها إلا في جوار المطعم بن عدي من بني نوفل، وهذا العمل من المطعم وإن دل على المروءة والشهامة ولكنه ليس عملاً فرديًا؛ لأن الجوار هو عمل مؤسسي يمكن الانتفاع منه لمصلحة الدعوة.

* * *

---

(١) أي عقبة الطائف وليست عقبة منى، انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢).

(٢) المصدر السابق: والأخشبان جبلان حول مكة.

(٣) د. ماجد الكيلاني: إخراج الأمة المسلمة: ٢٤.

(٩)

الفَرَج بعد الشدة وبيعة العقبة الكبرى

بعد هذه المحن المتوالية، وبعد حصار الشِّعب الذي دام ثلاث سنوات، ثم وفاة عمه أبي طالب الذي نصره وحماه، ووفاة السيدة الجليلة خديجة رضي اللَّـه عنها، وبعد هذه المحن المتوالية للخروج بالدعوة إلى أرض تكون لها مستقرًّا وحماية، بعد هذا جاءت البشائر من اللَّـه سبحانه وتعالى، وهذا من رحمته بعباده، فإنه بعد الصبر والثبات على الإيمان، والتوكل على اللَّـه، يأتي الفرج ويمكن اللَّـه لعباده المؤمنين في الأرض، ويخرجهم من الضيق إلى سعة الدنيا والآخرة، وكان أول هذا الغيث أن أكرم اللَّـه رسوله بالإسراء إلى المسجد الأقصى الذي بورك حوله، ثم عُرج به إلى السماء، وكان هذا الحادث العجيب مواساة لمحمد ﷺ، وأنه أثيرٌ وحبيبٌ عند اللَّـه، وكأن هذا الحادث إشارة إلى أن أمته ستفتح بلاد الشام، ويكون المسجد الأقصى للمسلمين الذين يصلحون ما أفسده بنو إسرائيل، من عدم رعايتهم لحق اللَّـه في الكتاب وفي المكان، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، وقد صح أن محمدًا صلَّى بالأنبياء في بيت المقدس، ووصف هيئاتهم، ثم عُرج به إلى السماء، ولقي الأنبياء، ورأى جبريل على هيئته التي خلقه اللَّـه عليها ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٣ - ١٤]، ووصف البيت المعمور، ونهر الكوثر، وفرضت عليه الصلاة خمسين ثم خُففت إلى خمس، وكان الإسراء والمعراج بروحه وجسده، كما ثبت ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

---

(١) انظر ما صحّ في حديث الإسراء والمعراج، زاد المعاد (٣/ ٣٤)، والسيرة الصحيحة (١/ ١٩٠).

*** أول إسلام الأنصار:**

قال ابن القيم: «وكان مما صنع اللَّـه لرسوله أن الأوس والخزرج كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيًّا من الأنبياء مبعوثًا في هذا الزمان سيخرج، فنتبعُهُ ونقتلُكُم معه قتل عاد وإرم»[1].

وكان رسول اللَّـه ﷺ يتعرض للأنصار في موسم الحج، فلقي سويد بن الصامت الأوسي، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد ولم يقرب، وجاء وفد من بني عبد الأشهل لعقد حلف مع قريش فجاءهم رسول اللَّـه ﷺ ودعاهم، فقال لهم شاب حدث منهم وهو إياس بن معاذ: أي قوم، هذا واللَّـه خير مما جئتم له، فانتهره رئيس الوفد ورجعوا ولم يعقدوا الحلف.

ولما أراد اللَّـه لرسوله من الكرامة كما يعبر ابن سعد، لقي رسول اللَّـه عند عقبة مِنَى على رأس السنة العاشرة ستة نفر من الخزرج هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث (ابن عفراء)، رافع بن مالك بن العجلان، قطبة بن عامر بن حديدة، عقبة بن عامر، وجابر بن عبد اللَّـه، فدعاهم إلى الإسلام، فقال بعضهم:

«تعلمون واللَّـه يا قوم إن هذا الذي تَوعَّدتكم به يهود، فلا يَسْبقنَّكم إليه» فأسلموا، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فكان قول اليهود سببًا في إسلام هؤلاء، وكانت (بُعاث) وما وقع فيها من القتل بين الطرفين (الأوس والخزرج) مما شجع هؤلاء أيضًا، فاستجابوا للَّه وللرسول (فأسرعوا وآمنوا وصدقوا وآووا ونصروا)، كما ذكر ابن سعد عن الواقدي، وبعد رجوع هؤلاء النفر إلى المدينة دعوا قومهم إلى الإسلام، وانتشر ذلك في المدينة، حتى لم يبق فيها دار إلا وقد دخلها الإسلام. فلما كان العام المقبل، جاء منهم اثنا عشر رجلاً، الستة الأول

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٤).

خلا جابر بن عبد اللَّـه، ومعهم معاذ بن الحارث (ابن عفراء)، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة، والعباس بن عبادة بن نضلة[1]، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، وبايعوا رسول اللَّـه ﷺ، قال عبادة بن الصامت: كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول اللَّـه ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب: على أن لا نشرك به شيئًا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى اللَّـه عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب»[2].

عاد الأنصار إلى المدينة وبعث رسول اللَّـه ﷺ معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، وقام مصعب رضي الله عنه بمهمته خير قيام، وفشا الإسلام في المدينة، ثم كانت بيعة ثانية فيها المنعة والقوة وحماية الدعوة، قال جابر ابن عبد اللَّـه رضي الله عنه: «فقلنا: حتى متى نترك رسول اللَّـه يُطرد في جبال مكة ويُخاف»، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم وتواعدوا عند العقبة لمبايعة الرسول ﷺ، وتمت هذه البيعة بسريّة تامة، فقد تواعدوا بعد ثلث الليل الأول، وتسللوا إلى المكان المتفق عليه، وهو مكان عقبة مِنَى، «وأمرهم رسول اللَّـه ﷺ أن لا ينبهوا نائمًا ولا ينتظروا غائبًا»[3]، فاجتمع منهم سبعون رجلاً وامرأتان (نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو)، وجاء رسول اللَّـه ومعه العباس بن عبد المطلب – قبل أن يسلم – إلا أنه أحب أن يستوثق لابن أخيه،

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/ ٢٢٠)، ط ١٩٨٥م، دار صادر، بيروت.

(٢) السيرة الصحيحة (١/ ١٩٧)، نقلاً عن سيرة ابن هشام، والحديث في صحيح مسلم، باب الحدود كفارات لأهلها. وغشي الشيء أي لابسه وقصد إليه، أي: إن لابستم المعاصي.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/ ٢٢١).

فتكلم رسول اللَّـه ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى اللَّـه ثم قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوموا في اللَّـه لا تخافون في اللَّـه لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»[1]، وكان أول من بايع البراء بن معرور، ثم طلب منهم رسول اللَّـه ﷺ أن يخرجوا له اثني عشر نقيبًا ليكونوا كفلاء على قومهم فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، ثم طلب منهم رسول اللَّـه ﷺ الانصراف إلى رحالهم.

هذه البيعة من أعظم أبواب النصر والتمكين، فقد أصبح للمسلمين قاعدة قوية راسخة، يؤسسون فيها دولة، وينطلقون منها للجهاد والدعوة، وإن هذا النجاح القوي الذي حققه الرسول ﷺ كان نتيجة تلك الخطوات الأولى المتأنية التي قام بها ﷺ في مكة والتي أدت إلى التسارع بعدئذ وآتت أكلها، وهكذا كل عمل يقوم على الحق ويؤسس على قاعدة صلبة، فإنه يؤتي ثماره بإذن اللَّـه.

وبعد هذه البيعة بدأ المسلمون في مكة بالهجرة إلى المدينة تاركين ديارهم وأموالهم في سبيل اللَّـه، وبقي الرسول ﷺ في مكة حتى يأذن اللَّـه له، وحتى يطمئن على سلامة المسلمين.

*** عظات وعبر:**

كثر الحديث في هذا العصر عن البيعة، وما نتج عنها من التزامات، وظن بعض الناس أن البيعة في عمل جزئي أو عمل دعوي مثل البيعة الشرعية لأمير المؤمنين أو للحاكم في الدولة الإسلامية، وأن من خرج عنها مات ميتة جاهلية،

---

(١) السيرة الصحيحة (١/ ١٩٩)، وعزاه إلى مسند أحمد بإسناد حسن، ومستدرك الحاكم وصححه وأقره الذهبي.

واستغل هذا الأمر لفرض الطاعة المطلقة، وربما أدى إلى تنفيذ أمور غير شرعية بحجة (السمع والطاعة)، واستعمل بعض القادة هذا المفهوم الخاطئ ليفرضوا استبدادهم وتسلطهم على مجموعات كبيرة.

والبيعة هي (المعاقدة والمعاهدة)[1]، والعهد يكون بمعنى اليمين والأمان، والحفاظ، ورعاية الحرمة، «والبيعة هي المتابعة على الأمر والطاعة، وبايعه عليه مبايعة: عاهده»[2]، ويروي المروذي قال: «سمعت أبا عبد اللّـه (الإمام أحمد) في العسكر يقول لولده: قال اللّـه تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ أتدرون ما العقود؟ إنما هو العهود»[3].

فالبيعة قد تكون لأمر خاص، يساعد على البر والتقوى، فتكون بمعنى التعاهد على القيام بهذا الأمر، وقد كان النبي ﷺ يبايع أصحابه في الحرب ألا يفروا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الهجرة، وبايعهم على التوحيد، «وبايعهم على ترك السؤال»[4]، روى النسائي عن جرير قال: «بايعت رسول اللّـه ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، وعلى فراق المشرك»[5].

فإذا تعاهد قوم على أمر يوافق الكتاب والسنة فلا يجوز للمسلم مفارقة ذلك العهد إلا إذا ناقض الكتاب والسنة، فلا طاعة في المعصية، فهذه العقود شيء والبيعة العامة للإمام التي من فارقها فارق الجماعة شيء آخر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللّـه ﷺ: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، فميتته جاهلية»[6]، أي: تكون حاله

---

(١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث (١/ ١٧٤)، المكتبة العلمية، بيروت.
(٢) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية: ٣٧، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥م.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١١/ ٣١٠)، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.
(٤) صديق حسن خان: حسن الأسوة: ٢٣٠.
(٥) الألباني: صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٧٥).
(٦) فتح الباري (١٣/ ١٣٠)، كتاب الأحكام: ٧١٤٣.

كحال أهل الجاهلية من التفرق وليس معناها أن يموت كافرًا، فهي كما قال الرسول ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، أي: أن ما بدر منك خصلة من خصال الجاهلية.

فالتعاهد على عمل الخير جائز وربما يكون مؤقتًا أو استثنائيًّا أو دائمًا، فقد قال الإمام الجويني: «لو خلا الزمان من السلطان، فحق على قُطَّان كل بلدة، وسكّان كل قرية، أن يقدموا من ذوي الأحلام والنُّهَى من يلتزمون امتثال إشارته وأوامره ...»[1].

وقد سُئل ابن تيمية / عن قوم يتدربون على السلاح ويعاهدون شيخهم الذي يدربهم على أن يكونوا معه يعادون من عاداه ويوالون من والاه، هل يجوز هذا؟ وهل إذا انتقل المتعلم إلى شيخ غيره يأثم أم لا؟

فأجاب: «لا يجوز للمعلمين أن يُحزِّبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، وليس لأحد أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس (جنكيز خان) وأمثاله، بل عليه وعلى أتباعه عهد اللَّـه ورسوله بأن يطيعوا اللَّـه ورسوله، ويراعوا حقوق المعلمين كما أمر اللَّـه ورسوله، ولا يجوز للتلاميذ أن يكونوا جماعات لأهداف دنيوية أو من أجل محالفة فئة ضد فئة، ولكن يحسن (للمعلم) أن يقول لتلميذه: عليك عهد اللَّـه وميثاقه أن توالي من والى اللَّـه ورسوله، وتعادي من عادى اللَّـه ورسوله، وتعاون على البر والتقوى ولا تعاون على الإثم والعدوان، وليس للمعلم أن يأخذ أحدًا من تلامذته لينسبوا إليه على الوجه البِدْعي، وليس له أن يمنع أحدًا من إفادة التعلم من غيره ...»[2]، والمطلوب من الدعوة اليوم أكبر من البيعة الخاصة، إنه حشد المسلمين ليكون لهم تأثير وفاعلية.

---

(١) الغياثي: ٣٨٧، تحقيق: عبد العظيم الديب ١٤٠١هـ، ط٢.

(٢) الفتاوى (٢٨/ ١٦ – ١٨).

إن التخطيط لهذه البيعة والتنفيذ لها، كان سريًّا، ولم تعلم بها قريش ولا المشركون من أهل المدينة، وقد قلنا إن علنية الدعوة لا تعني أن كل شيء يجب أن يوضع تحت نظر أعداء اللّـه، فيمكرون لإفشال خطة الدعوة والحركة.

ويستفاد من هذه البيعة ما توحي به من دقة التنظيم الإداري، ولذلك اختار رسول اللّـه ﷺ من بين المبايعين اثنا عشر نقيبًا ليكونوا كفلاء على قومهم، وليكونوا الواسطة بين القيادة وبقية المؤمنين، وبعد انتهاء البيعة قال رسول اللّـه ﷺ له: «ارجعوا إلى رحالكم». كما يستفاد منها أن الدعوات قد تقوم على أناس غير مشهورين وعلى المسلمين ألاّ ينسوا هؤلاء أو أمثالهم ممن يسمونهم في العصر الحديث بـ(الجنود المجهولين)، فإن هذه البيعة التي مهدت للهجرة ومن ثَمّ للدولة، إنما قامت بفضل اللّـه ثم بفضل أولئك النفر من الخزرج الذين أسلموا قبل سنتين من هذه البيعة، رضي اللّـه عنهم وجزاهم عن الإسلام خيرًا.

ويذكرنا هذا بأن بعض الدعوات الخيرة في هذا العصر قامت في البداية أو تجمع حولها في البداية أناس طيبون ليسوا من طلبة العلم ولا من خريجي الجامعات، ولكنهم من الذين يملكون فطرة سليمة، وحبًّا للدين، وصفاء في الذهن، عرفوا به أهمية الداعي وما يدعو إليه. الذين تجمعوا حول عز الدين القسام في فلسطين وعرفوا ما يريد، هم أناس قليلون من أصحاب المهن أو المزارعين، وبعض وجهاء القرى، والذين تجمعوا حول الشيخ حسن البنا في الإسماعيلية وطلبوا منه أن ينتقل بهم إلى عمل دعوي هم ستة من العمال، ثم قامت الدعوة بعدئذ على أكتاف علماء ومثقفين، ولكن يجب ألا يُنسى هؤلاء العمال البسطاء وهؤلاء الفلاحين الذين كانوا مع الشيخ القسام.

ببيعة العقبة الكبرى انتهت المرحلة المكية، وسينتقل المسلمون إلى المدينة، وهي مرحلة التأسيس والبناء، وهي سنوات معدودة، ولكنها مليئة بالأحداث والدروس وقد كان بالإمكان أن تختصر هذه المرحلة وينصر اللّـه رسوله ويسلم

الناس، ولكنه الجهد البشري والصبر والمعاناة وضبط النفس، «ولم نلحظ خلال هذه السنوات أنه ﷺ فقد صبره أو أفلت منه زمام لسانه، أو تسرب إلى نفسه أدنى يأس، والشدائد تعين على ضبط مقاييس الرجال بأكثر مما تعين عليها مناسبات الظفر والنصر»[1]، كان المسلمون يحتملون الأذى، ولكن قلوبهم مطمئنة إلى نصر اللّـه، ونفوسهم مستعلية على الشرك وأهله.

* * *

(١) حسين مؤنس: دراسات في السيرة: ٢٨.

(١٠)

التمكين في أرض الهجرة

كانت بيعة العقبة الثانية بداية التمكين في المدينة، وهي التي مهدت للهجرة التي تعتبر من أكبر أحداث السيرة النبوية، وحق لعمر بن الخطاب ﷺ أن يبتدئ بها التاريخ الإسلامي.

بعد هذه البيعة أذن رسول اللَّـه ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فكان أول من خرج أبو سلمة بن عبد الأسد ﷺ، وحبست قريش امرأته أم سلمة رضي اللَّـه عنها، ومنعتها من اللحاق بزوجها، ثم خرجت بعد سنة ولحقت به، ثم خرج الناس أرسالاً، ولم يبق بمكة إلاّ رسول اللَّـه ﷺ وأبو بكر وعلي، أو مستضعف حبسه أقاربه، ثم أُذن لرسول اللَّـه ﷺ بالهجرة، وقد اشتد حنق قريش عليه وتوجسوا خيفة من إيجاد المسلمين مأوى لهم ودار منعة وقوة، وقرروا قتل رسول اللَّـه ﷺ، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

أعلم رسول اللَّـه ﷺ أبا بكر بعزمه على الهجرة فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول اللَّـه، قال: «نعم»، وخرج رسول اللَّـه ﷺ إلى غار ثور، ومكث فيه ثلاث ليال، ثم جاءهم الدليل عبد اللَّـه بن أريقط (وكان كافرًا)، فأخذهما على طريق غير الجادة المعروفة باتجاه المدينة، ويحدد الإمام الزهري مبدأ الهجرة بأن رسول اللَّـه ﷺ مكث بعد الحج بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وقال الحاكم: «تواترت الأخبار بأن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين»[1].

---

(١) السيرة الصحيحة (١/ ٢٠٧).

وقد تلقى أهلها رسول اللَّـه ﷺ وصاحبه بالتكبير والترحاب، وكان أجمل يوم رأوه، ولم يفرحوا بشيء كفرحهم به، ونزل رسول اللَّـه ﷺ في قباء ثم تابع إلى المدينة واستقر بها، ونزل ضيفًا على أبي أيوب الأنصاري، وأصبح كما قال أبو قيس صرمة الأنصاري:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيبًا مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ المَوَاسِمِ نَفْسَهُ ... فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ رَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهِ النَّوَى ... وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطِيبَةَ رَاضِيَا
وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى ظُلَامَةَ ظَالِمٍ ... بَعِيدٍ وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا[1]

*** مبدأ الهجرة:**

يغلب على الإنسان حب الأوطان، وحب الاستقرار، ويصعب عليه مغادرة مألوفاته وذكرياته، وخلانه وأصدقائه، ولكن أصحاب المبادئ، وإن كانوا يحبون أوطانهم التي نشأوا بها وهذا شيء طبيعي، إلا أنهم يُغلّبون المبادئ على هذه النوازع الفطرية، فأرض اللَّـه واسعة، وإقامة الدين وشعائره، والصدع بكلمة الحق، وبث كلمة التوحيد من أعظم واجبات المسلم، وقد هاجر الأنبياء وتركوا أوطانهم، وهاجر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى أرض الشام، ثم أقام ابنه إسحاق المسجد الأقصى في الشام، وهاجر لوط عليه السلام واستقر في الشام أيضًا، وخرج موسى عليه السلام بقومه من ظلم فرعون وملئه ليتبوأ لبني إسرائيل مكانًا آمنًا، وكأن الدعوات لا تقوى في مكان نشأتها، ولابد لها من الانتقال، وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «أريت في المنام دار هجرتكم، أرضًا بين حرتين، فذهب

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٩).

وهلي أنها هَجَر[1]، فإذا هي يثرب»، وفي لفظ (المدينة)[2]، وفي رواية مسلم: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهْلي إلى أنها اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة، يثرب ...»[3].

*** تعريف الهجرة وشرعيتها:**

الهجرة مصطلح إسلامي خاص، مثل مصطلح (الجهاد). والهجرة هجرتان:

- **هجرة داخلية:** من ثقافة المجتمعات الجاهلية إلى تربية القرآن، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝﴾ [المدثر: ٥]، وفي الحديث: «أن تهجر ما كره ربك عز وجل»[4]، «وهي هجرة بالقلب إلى اللَّـه ورسوله، فيهاجر من محبة غير اللَّـه إلى محبته، ومن عبودية غير اللَّـه إلى عبوديته، وهذا معنى الفرار إلى اللَّـه»[5].

- **وهجرة حسية:** وهي الانتقال من بلد الكفر أو الشرك إلى بلد الإسلام، أو «الفرار بالدين من الفتن إلى محل يأمن فيه من الآثام»[6]، أو الانتقال من بلد «يُعلَنُ فيه بالمحرمات، والمقيم فيها لا يقدر على إظهار دينه والتصريح بالبراءة من المشركين»[7]، أو من بلد «يفتن المسلم فيها عن دينه، أو يفتن أولاده بأن يؤذى إذا صرح في اعتقاده، أو لا يقدر على التصريح بعقيدته قولاً أو كتابة إلى بلد فيها

---

(١) هَجَر: شرقي الجزيرة العربية، وقيل عاصمة ذلك الإقليم الذي كان يسمى (البحرين) وهو ما يسمى اليوم بـ(الأحساء).

(٢) فتح الباري (٦/ ٧٢٥)، كتاب المناقب (٣٦٢٢).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٧٧٩).

(٤) الألباني: صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٧٣).

(٥) ابن القيم: الرسالة التبوكية: ٣٦، تحقيق: عقيل المقطري.

(٦) حماد الأنصاري: إعلام الزمرة بأحكام الهجرة: ٩، مكتبة الدار، المدينة.

(٧) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: المسائل النجدية (٢/ ١٣٤).

متنفس ..»[1]. ويروي أبو زيد القيرواني عن الإمام مالك قوله: «ولا ينبغي المقام بأرض يعمل فيها بغير الحق، والسبّ للسلف الصالح، وأرض اللّـه واسعة، ولقد أنعم اللّـه على عبد أدرك حقًّا فعمل ...»[2].

قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت: ٥٦]، قال ابن كثير: «هذه الآية تضمنت أمرًا من اللّـه تعالى لعباده بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض اللّـه الواسعة حيث يمكن إقامة الدين»[3].

إن الهجرة بهذه المثابة عبادة من العبادات التي يُتقرب بها إلى اللّـه، ولذلك لم يرض رسول اللّـه ﷺ أخذ ما أعده أبو بكر رضي الله عنه من الراحلتين استعدادًا للهجرة إلا أن يدفع الثمن، وقد كانت الهجرة إلى المدينة واجبة على كل من أسلم، ولم تنقطع إلا بفتح مكة، وكأن ذلك نصرة للنبي ﷺ ومواساته بالنفس، وتجميعًا للطاقات والكفاءات العالية، والمساعدة في بناء المجتمع الإسلامي الأول، وتقويته، والمشاركة في الجهاد لحمل الرسالة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٢]، والمسلم الذي لا يهاجر ليس له من الحقوق مثل ما للمهاجر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وإن بقاء المسلم داخل مجتمعات الشرك مما يمد تلك المجتمعات بالأموال والخبرات، يقول ابن تيمية حول هذا الموضوع: «ومساعدتهم لعدو المسلمين بالأنفس والأموال محرمة عليهم، ويجب عليهم

---

(١) عبد الرحمن الدوسري: صفوة الآثار (٣/ ٣٥٠).

(٢) كتاب الجامع: ١٥٦، بتحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م.

(٣) حماد الأنصاري: إعلام الزمرة بأحكام الهجرة: ١٥.

الامتناع من ذلك بأي طريق أمكنهم، من تغيب أو تعريض أو مصانعة، فإذا لم يكن إلا الهجرة تَعَّينت»[1]، وقد سُئل ابن تيمية عن المقيم في مدينة (وكانت تحت الاحتلال المغولي)، هل تجب الهجرة عليه؟ فقال: «والمقيم بها إن كان عاجزًا عن إقامة دينه وجبت الهجرة، وإلا استُحِبَّتْ ولم تجب»[2]، وعند (الماوردي) أنه إذا قدر على إظهار الدين في بلاد الكفر فالإقامة أفضل لما يترجى من دخول غيره في الإسلام[3]، وقال تعالى عن الذين يفضلون الارتباط بالأرض وكيف توبخهم الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧]،

*** فوائد الهجرة:**

إن المسلم الذي يتخلى عن روابط الأسرة والدم، وروابط القبيلة والوطن، وعنده الاستعداد للتضحية بماله ونفسه وولده في سبيل اللَّـه، إن هذا المسلم لهو أهل لأن يمكن اللَّـه له في الأرض، وهو أهل لأن يقيم دين اللَّـه، ويحافظ عليه، ويدافع عنه، واللَّـه سبحانه وتعالى يحب الأقوياء الذين إذا نزل بهم البغي قابلوه بالقوة، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩]، وبسبب هذه التضحيات جعل اللَّـه سبحانه وتعالى رسوله إبراهيم عليه السلام إمامًا للناس.

ومن أعظم فوائد الهجرة: مراغمة أهل الباطل، قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠]، إنهم يرغمون أنوف أهل الباطل بتجمعهم، وتعاونهم، وإقامتهم للمجتمع الإسلامي في أنفسهم، وانفلاتهم من قبضة القهر والظلم، وحمايتهم من التصفية الشاملة كما فعل مهاجرو الحبشة.

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٢٤٠).

(٢) الفتاوى (٢٨/ ٢٤٠).

(٣) السيرة الصحيحة (١/ ٢٢٣).

ومن فوائدها: السعة في الرزق، وتخليص المؤمنين من العوز، فالمسلمون الذين يتجمعون على إخاء وإيمان سيأتي إليهم من يعتقد عقيدتهم، وبهذا يكثر الناس في مكان التجمع، وهذا من أسباب رواج التجارة والعمل، وزيادة الخبرات، وتعلم علوم جديدة، ولهذا قامت قيامة قريش وشعرت بالخطر عندما رأت مكة أقفرت من المسلمين، وأصبح لهم موطن جديد.

إن قرية صغيرة يمكن أن تتحول في فترة قصيرة إلى مدينة مشهورة بسبب الهجرة، وعندما هاجر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية تحولت إلى عاصمة، وتحولت الواحات الصغيرة إلى قرى كبيرة في عهد السنوسية في الصحراء الليبية، وقد تضاعف عدد سكان المدينة خمس مرات بعد الهجرة كما يذكر السمهودي، بل إن هذا وقع من حركات داخل النصرانية، وذلك عندما فَرَّ أتباع (كالفن) البروتستانتي من محاكم التفتيش الكاثوليكية في إسبانيا وتجمعوا في هولندا، فكان هذا من أكبر أسباب نهضة هولندا، وقبل أن تنهض بريطانيا وفرنسا وألمانيا، «فالهولنديون كانوا شعبًا من المهاجرين، والهجرة هي التي تفسر السهولة التي تمت بها إعادة إنتاج ظاهرة التطور في القارة الأمريكية»[1]. وإذا كان الكاتب يتحدث عن تأسيس الولايات المتحدة، فإنها في العقود الأخيرة استفادت كثيرًا من هجرة (الأدمغة) وخاصة العربية والمسلمة.

يقول مؤرخ أمريكي: «إذا أردنا فهم التاريخ الأمريكي علينا فهم تاريخ الهجرة». وهذا نذكره مع الأسف الشديد؛ لأن البلاد الإسلامية الواسعة المساحة والتي هي في طور النمو كانت بحاجة إلى تلك الأدمغة، ولكن التخلف بكل أشكاله منع من هذا، فالأمة الإسلامية في عصور ازدهارها لم يكن لديها (جواز سفر) ولا (حدود) فكان العلماء وأصحاب المواهب يتنقلون ويستقرون في البلد الذي يجدون فيه الطمأنينة ويستفيد منهم، وأما (جواز السفر) فهو من نتائج قيام الدولة القومية في أوربا[2].

---

(١) عن كتاب «مجتمع الثقة» لمؤلفه آلان بيرفت.

(٢) المهدي المنجرة: مقال في القدس العربي، ٣٠/ ٦/ ١٩٩٧م.

ومن فوائد الهجرة: تعلم الخبرات، والنظر في الآفاق، وملاحظة سير الأمم وأخلاقها، ومعرفة أسباب التقدم والتأخر فهي تعطي المسلم تجددًا دائمًا، ولذلك كانت هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، فهي فاتحة عهد إقامة المجتمع المسلم والدولة الإسلامية، فعن أبي فاطمة أنه قال: يا رسول اللَّـه حدثني بعمل أستقيم عليه وأعمله، قال له رسول اللَّـه ﷺ: «عليك بالهجرة فإنه لا مثل لها»[1]. وحكم الهجرة باق مادام في الأرض صراع بين الخير والشر، ومادام في الأرض جهاد لإزاحة الشر كما جاء في الحديث: «إن الهجرة لا تنقطع مادام الجهاد»[2]، وحديث «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية ..»، فهذا في الهجرة إلى المدينة، «ولكن الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر ولم يأمن الفتنة على دينه مع قدرته على الخروج منها»[3]، ويقول الشيخ الدوسري ⁄: «وقد استمر وجوب الهجرة على كل من لم يقدر على إظهار دينه في أي بلد يغلب عليها الكفر أو البدع المضلة»[4].

*** دروس من هجرة المصطفى:**

أول ما يلفت النظر لمن يتتبع مراحل الهجرة، وحتى وصول ذلك الركب الكريم إلى المدينة النبوية، ذلك التخطيط البالغ في الدقة والذكاء، فالرسول ﷺ يذهب إلى بيت أبي بكر ظهرًا، في وقت يخلو من الناس، ويذهب متقنعًا زيادة في الحذر والاحتياط، ويخرج في تلك الليلة واضعًا علي ابن أبي طالب مكانه في الفراش، ولا يخرج إلى المدينة مباشرة، فهذا يعني سهولة تتبع الأثر، وإنما باتجاه معاكس، نحو الجنوب إلى غار ثور، والبقاء فيه

---

(١) صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٧٣).

(٢) صحيح الجامع الصغير (٢/ ١٧٦).

(٣) د. أكرم العمري، الصحيحة (١/ ٢٣٨).

(٤) عبد الرحمن الدوسري: صفوة الآثار (٣/ ٣٥٠).

ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب والبحث عنهم، والاتفاق مع عبد اللَّـه بن أريقط من بني الديل على أن يأتيهما بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وهذا الدليل على دين قومه، ولكنه خبير مأمون لا يخشى منه، وفي هذه الليالي الثلاث يأتيهما عبد اللَّـه بن أبي بكر بأخبار مكة، وماذا تقول أو تدبر، وفي المساء يأتيهما عامر بن فهيرة الذي يرعى غنيمات لأبي بكر فيسقيهما، ثم يعود مبكرًا فيسرح مع الناس ولا يدرون أين بات، ثم يسلك بهم الدليل طريقًا ساحليًّا غير الطريق المعهود للمسافرين، وكان أبو بكر إذا سئل في الطريق عن الرسول ﷺ يقول: هذا الرجل يهديني السبيل.

لِمَ كل هذه الاحتياطات؟ ولِمَ كل هذا الأخذ بالأسباب؟ أليس هو رسول اللَّـه، مؤيد من اللَّـه، فلِمَ لا يُعمّي قريشًا عن رسول اللَّـه ﷺ بكل سبيل، ويسير رسول اللَّـه ﷺ بالسير العادي، فيصل المدينة في ثمانية أيام، يعاني التعب والنصب في الفيافي والقفار، أليس كل هذا ليكون الرسول ﷺ قدوة للمسلمين في الأخذ بالأسباب والاحتياطات الممكنة، بعد التوكل على اللَّـه ومعرفة أن ما شاء اللَّـه كان وما لم يشأ لم يكن؟ أليس لهذا السبب كان رسول اللَّـه مطمئنًّا، وقد وقفت قريش على باب الغار، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قلقًا فيقول: يا رسول اللَّـه، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا، فيقول رسول اللَّـه ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللَّـه ثالثهما»، وقد أشار القرآن إلى هذا ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، كان ﷺ مطمئنًّا لأنه أخذ بكل الأسباب الممكنة، واللَّـه ناصره ومعينه بعد ذلك.

لقد ظهرت معجزات حسية كثيرة على يدي رسول اللَّـه ﷺ وظهرت كرامات لبعض الصحابة وهي عند التابعين أكثر، ولا أحد ممن سلمت عقيدته ينكر الكرامات التي فيها خرق للعادة للصالحين والأتقياء من هذه الأمة، ولكنها ليست الأساس في الدعوة إلى اللَّـه فالدين يريد من أصحابه الأخذ بالأسباب

أولاً، وقد سخَّر اللَّـه لهم الكون ليقوموا بالجهد البشري، وبعد هذا قد يأتي التأييد الذي ليس بحسبان البشر، وقد تأتي الكرامات تكريمًا من اللَّـه للمقربين من عباده وخاصة في حالة الالتجاء والضرورة، ولكن المسلمين في عصور التخلف العلمي والحضاري، والبعد عن العقيدة الصحيحة والفهم الصحيح، أعجبهم الذين يطيرون في الهواء أو يمشون على الماء، وهم من غير أهل العلم والتقوى، وأصبحت هذه القصص ديدنهم، وابتعدوا عن الأخذ بالأسباب، وامتلاك ناصية العلم ليمتلكوا ناصية الدنيا التي فيها معاشهم، والتي فيها يقيمون أمور دينهم، ومن بُعْدهم عن هذا المنهج ظنهم أنه بالعدد اليسير جدًّا وبالعدة القليلة يستطيعون تغيير هذا الواقع، مع تعقيداته، وقوة الباطل وجبروته، ويا ليت أنهم رغم قلتهم القليلة يأخذون بالأسباب الصحيحة، وإنما ظن وتخمين، وفهم سقيم للتوكل، وشحنات عاطفية لم تقم على عقل أو شرع، وهذا ليس تيئيسًا من التغيير، ولكنه درس في سياسة الأمور، حتى لا يكون هؤلاء كالفراش الذي يقتل نفسه عند الضوء.

إن هذا الدين هو خاتمة الرسالات، ومعجزته الباقية القرآن الكريم؛ لأنه محفوظ وباق إلى أن يرث اللَّـه الأرض ومن عليها..

ومن فوائد الهجرة: أن المسلمين مطالبون بالبحث عن المكان المناسب الذي يُمَكِّن للدعوة، و(إخراج الأمة المسلمة)، وأرض اللَّـه واسعة، والمسلم يعيش حيث يستطيع إظهار دينه، وحيث تصان حريته وكرامته.

يقول الشيخ دراز تعليقًا على الهجرة: «لم يخرج الرسول ﷺ إلى المدينة لحماية شخصه، ولكن لحماية رسالته، ولم يكن هروبًا من الجهاد، ولكن استنادًا إلى قلعة الجهاد، وكان هذا فاتحة العهد الجديد، ومن أجل ذلك نيط به تاريخ الإسلام»[1].

---

(١) نظرات في الإسلام: ٣١.

ويعلق الشيخ الإبراهيمي: «ومن اللطائف أن القرآن سمّاها إخراجًا من الذين كفروا، وأن سمى الصحابة المهاجرين، وبعض الحكمة في ذلك أن التذكير بالإخراج من الديار يُذْكي الحماسَ ويُبقي الحنينَ إلى الديار، وإيجاب الهجرة بتلك الأساليب المغرية هو جمع الأنصار في مأرز واحد ..»[1].

* * *

(١) الآثار الكاملة (٣/ ٤٧٢).

(١١)

التمكين في الأرض

*** المسجد ـ الإخاء:**

بعد أن استقر المقام برسول اللّـه ﷺ في دار هجرته، ونزل ضيفًا على أبي أيوب الأنصاري، كان أول عمل يقوم به هو: بناء المسجد ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١]، فالغاية الكبرى عبادة اللّـه سبحانه وتعالى، وللمسجد مكانة في الإسلام لا تعادلها أي مؤسسة أخرى فكر فيها الإنسان.

قام رسول اللّـه ﷺ ببناء المسجد في المكان الذي بركت فيه ناقته، وكان مربدًا لغلامين يتيمن من بني النّجار، فاشتراه رسول اللّـه ﷺ وقطع ما فيه من نخل، وسويت الأرض، وبدأ العمل، وتم بناء المسجد، وكان بناءً متواضعًا من اللّبن والطين، وسقفه من جريد النخل، وأرضه الحصباء، وقام الصحابة بهذه الأعمال وشاركهم رسول اللّـه ﷺ، وكانوا يتناشدون:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالرَّسُولُ يَعْمَلُ فَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

وما أعظم أن يشارك القائد جنوده في العمل، ولم يكن رسول اللّـه ﷺ من أولئك الذين يضعون (حجر الأساس)، بل كان يشارك فعلاً، وهذا درس في مقومات القيادة التي يلتف حولها الأنصار، ولا يتصور أحد تلك المشاعر وتلك الفرحة الغامرة التي ارتسمت على وجوه الأصحاب وهم يضعون بهذه اللبنات أسس حضارتهم، فإن هذا الدين أعطاهم هدفًا في الحياة، وأعطاهم مبررًا للوجود، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، إنهم

يصنعون حضارتهم بأيديهم، وهذا يعطيهم طاقة فعالة وتوترًا اجتماعيًّا عاليًا، فيعملون ويتعاونون وهم في غاية السعادة، وهذا ما جعل صحابيًّا مثل عمار بن ياسر يحمل لبنتين ولا يشعر بثقلهما، لقد تعلموا من صاحب الرسالة دروس العمل، فلم يكن الإسلام في يوم من الأيام نظريات مجردة وكثرة كلام حول (مشاريعنا وتطلعاتنا) دون القيام بعمل، وما يلجأ إلى التنظير المجرد وشقشقة الكلام إلا من استكبر عن منهج الأنبياء أو كان جاهلاً بطبيعة الإنسان، «فإن مثل النبي ﷺ مثل طبيب زار مريضًا فرأى مرضه، فدله على شرب دواء معين، وأمره بنظام خاص في الطعام والشراب، فأطاع المريض فشفي، ولكن الفيلسوف يسلك طرقًا طويلة، إذ يتكلم عن سبب المرض، وصفته، وذمه، وذم ما أوجبه، ولو سأله المريض عما يشفيه عجز عن الإجابة»[1]، وقد مَنَّ اللَّـه على داود عليه السلام وعلى قومه بأن علَّمه صنعة الحرب ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠]، فهذا نبي من الأنبياء يعمل بيده، وقد مدح القرآن ذا القرنين بما عنده من العلم ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٤]، وبهذا العلم أقام سدًّا كما طلب منه الذين لا يفقهون قولاً، ولم يعطهم محاضرة في طريقة البناء ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ٩٥].

أسرف المسلمون في صنعة الكلام، وأبطأوا في إقامة المؤسسات والاهتمام بالعمل، وما يزال بين أظهرنا من يريد إشغال المسلمين بعلم الكلام، والحديث عن الفلاسفة الذين لا يفقهون طبيعة الإنسان.

---

(١) ابن تيمية: انظر: هنري لاوست: نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع (١/١١٦)، ط١، ١٣٩٦هـ، دار الأنصار، القاهرة.

من هذا البناء المتواضع الذي أسس على التقوى، خرج رجال منهم العلماء، ومنهم القادة الذين أداروا دولة مترامية الأطراف، وعندما اتجه المسلمون نحو الشكلية ومضاهاة الأمم الأخرى في التفاخر والتكاثر، وأنفقوا أموالهم في الزخرفة والنقوش، كانوا قد فقدوا النموذج الإسلامي الأصيل، وذهبت مساجدهم في الأندلس لأعداء الإسلام.

بني مسجد رسول اللّـه ﷺ من الطين، وجعلت عضادتاه من الحجارة، وفي العصر الحديث عندما ابتعد المسلمون عن فقه دينهم ومقاصد شريعتهم جلبوا الحجارة و(الرخام) من إيطاليا، فيا لها من سُبَّة إلى آخر الدهر، حتى أرضنا لا نستخدمها، وحتى حجارتنا لا ننتفع بها، إن المهم في بناء المساجد سواء كانت من الطين أو من غيره، أن تتميز بالبساطة في المظهر والقوة في البنيان والاتساع لأكبر عدد من المصلين.

إن رسالة المسجد في الإسلام رسالة كبيرة ومتعددة، وقد كتب حولها الكثير ولا حاجة لإعادته، ولكن أليس من المعجزات الربانية ومن عظمة هذا الدين أن يبقى هذا المسجد مركزًا لتجمع المسلمين والتقائهم خمس مرات في اليوم رغم أنف أعداء الإسلام، فلا يستطيعون منع الناس من الصلاة، وهم يودون لو تغلق هذه المساجد ولكن اللّـه غالب على أمره، إنها تزداد يومًا بعد يوم، إنه صنع اللّـه وهو فوق طاقة البشر.

*** الإخاء:**

وكان الأمر الثاني الذي قام به رسول اللّـه ﷺ في مرحلة التمكين في الأرض، (وهو أمر عملي أيضًا) ذاك التلاحم الاجتماعي الأخوي الذي تم بين المهاجرين والأنصار، وهذا التلاحم الذي سمي بعقد (المؤاخاة) عملية فريدة في تاريخ البشرية، وهو فوق الأخوة الإسلامية، فكان المهاجري يرث الأنصاري من

دون أقربائه ومواليه، ويواسيه الأنصاري في كل أمر سواء كان ماديًّا أو رعايةً ونصحًا، أو تزاور ودٍّ ومحبة[1]، ولم يبق من المهاجرين أحد إلا آخى بينه وبين أنصاري، وكان الأنصار كما وصفهم اللَّـه سبحانه وتعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، فلم يبخلوا، ولم يتلكؤوا، وبقيت هذه المؤاخاة إلى ما بعد بدر، حتى نزلت آية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، فبقيت مؤاخاة المواساة والتعاون والنصح، ونُسخ التوارث.

إن هذه المؤاخاة كانت حلاً عمليًّا لمشكلة كبيرة لم يغفل عنها رسول اللَّـه ﷺ، فإن المهاجرين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة، فماذا يعملون؟ إن أهل المدينة قوم يمتهنون الزراعة، والمدينة محصورة بين حرار من الشرق والغرب، وجزء كبير من الأرض الزراعية قد سبق إليها يهود، والمهاجرون قوم تجار لا يتقنون الزراعة، والدولة الناشئة بحاجة إلى كل مسلم، فكيف بالسابقين الأولين، فهل يترك هؤلاء ليبحثوا عن مصدر رزقهم كيفما اتفق؟ ولو أدى ذلك لخروجهم من المدينة. إن الحل الصحيح هو في تشريع المؤاخاة الذي سنّه رسول اللَّـه ﷺ.

إن المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة والتي لن ترقى إلى مستوى المؤاخاة في المدينة، فليكن فيها التعاون والإيواء والنصرة ومواساة المسلم.

إن الفرد المسلم حين يشعر أن له إخوة يحبهم ويحبونه، وينصرهم وينصرونه، خاصة إذا تفاقمت الأزمات، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فإن هذا مما يرفع من روحه المعنوية، بل ويرفع قدراته الذاتية، ويجعله أقوى مضاء وعزيمة، وإن فقدان مثل هذه المؤاخاة مما يضعف الصف الإسلامي ويجعل الفرد

---

(١) الصحيحة (١/ ٢٤٤).

المسلم يشعر أحيانًا أنه وحيد أمام أعداء يكنّون له كل حقد، ويحيطون به من كل جانب، فكيف يستطيع حمل كل هذه الضغوط النفسية والمادية؟ وإذا كان التوارث قد نسخ فإن التعاهد والمواساة الأخوية من حقوق المسلم على أخيه، وقد مدح رسول اللّـه ﷺ الأشعريين (قوم أبي موسى الأشعري)؛ لأنهم كانوا (إذا أرملوا تقاسموا الزاد بينهم).

ولا أظن أن المسلمين يستطيعون (الإقلاع) لاستئناف حياة إسلامية – قوية عزيزة – إذا لم يتخلقوا بهذه الأخلاق العملية، ويرتقوا إلى هذا المستوى الإيماني، وإلى هذه التضحيات، وأما هذه المظاهر من الأخوة (باللسان) فلا تجدي فتيلاً.

* * *

(١٢)

التمكين في الأرض

الجهاد

لم يأذن اللَّـه للمسلمين في الفترة المكية باستعمال القوة مع أعدائهم، ربما حتى لا يستغلها الأعداء ويستأصلوا شأفة المسلمين وهم قلة يومئذ، وحتى لا تثور جراحات بين الأسرة الواحدة والعشيرة الواحدة، «وربما كان ذلك أيضًا لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس، وربما لما يعلمه اللَّـه من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام ..»[١].

حتى إذا جاء الاستقرار والتمكين، وتمايزت الصفوف بين دار هجرة وإسلام ودار حرب وكفر، أذن اللَّـه تعالى للمسلمين بالقتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج: ٣٩]، ثم أمرهم بقتال من قاتلهم ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم أمرهم بقتال المشركين كافة، كما هو مبين في السيرة النبوية، حسب مراحل معينة، فالأمر بقتال المشركين كافة كان في آخر المرحلة المدنية (فكان الجهاد محرمًا، ثم مأذونًا به، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين ..»[٢].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٢/ ٧١٤)، دار الشروق: بيروت، القاهرة ١٩٨٠م.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١١٨).

إن (الجهاد) مصطلح إسلامي وإذا أطلق فهو يعني القتال في سبيل اللَّـه، والدليل على ذلك ما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلَّني على عمل يعدل الجهاد، قال: «لا أجده»، قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» قال: ومن يستطيع ذلك». والصيام والقيام من جهاد النفس، ومع هذا قال رسول اللَّـه ﷺ: لا أجد ما يعدل الجهاد، فدل على أن المراد هو قتال الكفار[1].

يقول ابن القيم: «ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي بالقرآن[2]، والآيات التي ذكر فيها القتال كثيرة جدًّا ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ... ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

وإذا كان الجهاد لغة يعني المجاهدة على طاعة اللَّـه، وبذل الجهد والوسع، فلا شك أن هناك جهاد النفس حتى تستقيم على طاعة اللَّـه، وهناك جهاد الشيطان ودفعه عن الوسوسة، وهناك جهاد الكلمة والدعوة وهو أمر عظيم، ولكنه إذا أطلق فهو الجهاد في سبيل اللَّـه.

*** طبيعة الجهاد في الإسلام:**

إن (الجهاد) مصطلح إسلامي لا مثيل له في اللغات والثقافات الأخرى، فليس هو (الحرب) ولا (الحرب المقدسة) لما لهذين المصطلحين من ظلال خاصة،

---

(١) د. علي نفيع العلياني: الجهاد: ١١٨.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٧١).

ولكنه قتال (في سبيل اللّـه) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، وإذا كان في سبيل اللّـه فهو لعمارة الأرض وصلاحها، فليس يشبه قتال التسلط والاستغلال الذي تقوم به الدول القوية، والتي تهدف إلى التوسع والعلو في الأرض، فتدمر كل شيء للوصول إلى أهدافها، ولا هو من قبيل القتال في سبيل الوطن أو القومية أو القبيلة، فإن هذا لن يؤدي إلى تحرير الإنسان وإخراجه من القهر والظلم إلى العدل والرحمة، كما يحلم كاتب مثل «فرانز فانون» في كتابه «معذبو الأرض»، فإن الذين قاتلوا في سبيل تحرير الأوطان (ولم يكن لهم هدف أسمى من هذا) أدمنوا القتال والقتل، وقتلوا رفاقهم بالأمس، وحكموا الشعوب بالقوة والاستبداد؛ لأن القتال إذا لم يكن له هدف سامٍ، ولم يكن له ضوابط، يتحول إلى نوع من الهمجية، حيث تستيقظ في النفوس النزعة التدميرية.

ليس الجهاد من القتال الذي لا يعرف صاحبه لِمَ قَاتَل ولم قُتل، والمسمى (بالهرج)، ولا من القتال الذي غايته السلب والنهب والاستيلاء على أملاك الناس، إن الجهاد بعيد عن كل هذا، فقد جاء في وصية الرسول ﷺ إذا بعث سرية: «سيروا باسم اللّـه، وفي سبيل اللّـه، وقاتلوا من كفر باللّـه، ولا تمثلوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا»[1].

إن الجهاد قتال لتحرير البشر من العبودية لغير اللّـه، وتطهير الأرض من الفساد والطغيان، وليعيش الناس تحت كنف الإسلام سواء أسلموا أم لم يسلموا، يعيشون تحت ظل عدالته ورحمته، دون إكراه أحد منهم على الخضوع لعقيدة الإسلام، ولعلهم في كنف الحكم الإسلامي يفكرون في أمر هذا الدين وما فيه من مزايا فيسلمون، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠٠)، أخرجه مسلم في الجهاد.

اللّـه ﷺ يقول: «عجب ربنا تعالى من قوم يُقادون إلى الجنة في السلاسل» [جامع الأصول ٢/ ٦٢٣]، قال إبراهيم الحربي: «يُقادون إلى الإسلام مكرهين فيكون ذلك سببًا في دخولهم الجنة».

يقول الإمام القفال من علماء الشافعية: «القتال على الدين لا ينكره منصف، وذلك لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الإلف والعادة، ولا يتأملون في الدلائل التي تورد عليهم، فإذا أكره المرء على الدخول في الدين بالتخويف وبالقتل[١]، دخل فيه، ثم لا يزال يضعف ما في قلبه من حب الدين الباطل، ولا يزال يقوى في قلبه حب الدين الحق، إلى أن ينتقل من الباطل إلى الحق»[٢].

إن البشر الذين خلقهم اللّـه لعبادته، قد استعانوا بما سخّر اللّـه لهم من الأرض والخيرات على عصيان مولاهم، وانتهاك حرماته فقامت الدعوة إلى اللّـه على نهي الناس وزجرهم باللين والحكمة والموعظة الحسنة، «فإن نجحت هذه الطريق فبها ونعمت وهو المطلوب، وإن لم تنجح تعينت طريق القسوة بالسيف حتى يعبد اللّـه وحده، وتقام حدوده»[٣]، «وإن المحمولين على شرف الدين في مبدأ أمرهم كرهًا، متى وقفوا على فضائل دعوة الحق أخيرًا، فإنهم بعد الاستيضاء برونقها سيعتدّون له (محمد ﷺ) بجسيم المنة وجزيل النعمة، ويقبلون على خدمة مولاهم، فتصير أحوالهم فيه شبيهة بحال المأخوذ في صغره بالتأديب وهو يبغض مؤدبه حتى إذا عقل وانتبه أيقن موقع النعمة العظيمة»[٤].

---

(١) هو مخير بين القتل أو دفع الجزية والعيش تحت حكم الإسلام.

(٢) رشيد رضا: تفسير المنار (٤/ ٦١).

(٣) محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان (٢/ ١٥٦).

(٤) أبو الحسن العامري: الإعلام بمناقب الإسلام: ١٥٧، تحقيق: أحمد عبد الحميد غراب، الرياض ١٩٨٨م.

سخّر اللّـه سبحانه وتعالى هذه الأرض للإنسان، فإذا عصى وتمرد على سيده وخالقه، فلا يستحق أن يكون سيد نفسه، بل يخضع لشرع الإسلام، إن من يستحق التمتع بهذه الأرض هو من يعبد مولاه ويسخرها للاستعانة على طاعته، وليس الذي يسخرها لزيادة الكفر والشرور، يقول ابن تيمية: «وأما الكفار فلم يأذن اللّـه لهم في أكل شيء، ولا أحل لهم شيئًا ولا عفا لهم عن شيء يأكلونه، بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨]، فشرط فيما يأكلونه أن يكون حلالاً، وهو المأذون فيه من جهة اللّـه ورسوله، واللّـه لم يأذن في الأكل إلا للمؤمن به، فلم يأذن لهم في أكل شيء إلا إذا آمنوا، ولهذا لم تكن أموالهم مملوكة لهم ملكًا شرعيًّا؛ لأن الملك الشرعي هو القدرة على التصرف الذي أباحه الشارع ﷺ، والشارع لم يبح لهم تصرفًا في الأموال إلا بشرط الإيمان، فكانت أموالهم على الإباحة، والمسلمون إذا استولوا عليها فغنموها ملكوها شرعًا؛ لأن اللّـه أباح لهم الغنائم، ولهذا سمى اللّـه ما عاد من أموالهم إلى المسلمين فيئًا؛ لأن اللّـه أفاءه إلى مستحقه، أي رده إلى المؤمنين الذين يعبدونه»[(١)].

وإن انتشار الإسلام وازدياد رقعته مما يكثر عدد المؤمنين، فالجهاد ليس دفاعيًّا بمعنى أن نترك الكفار إذا تركونا بل نبدأهم إذا كان في المسلمين قوة، وندعوهم لعبادة اللّـه وحده، يقول ابن تيمية: «لما نزلت سورة براءة أمر الرسول ﷺ أن يبتدئ جميع الكفار بالقتال، وثنيُّهم وكتابيُّهم، سواء كفوا عنه أم لم يكفوا»[(٢)]، ويقول الإمام الجويني: «وعلى الإمام بذل كنه الاجتهاد في ابتغاء الازدياد في خطة[(٣)] الإسلام، والسبيل إليه الجهاد، ومنابذة أهل الكفر

---

(١) الإيمان: ٤٤، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ.

(٢) الصارم المسلول: ٢٢٠.

(٣) أي: أراضي الدولة الإسلامية.

والعناد»[1]، ويقول أيضًا: «إذا كثر عدد جند الإسلام، واستمكن الإمام من تجهيز جيش بعد انصراف جيش، فليفعل ذلك جادًّا مجتهدًا عالمًا بأنه مأمور بمكاوحة الكفار ما بقي منهم في أقصى الديار ديّار»[2].

يقول ابن عبد البر: «فرض على الإمام إغزاء طائفة العدو ..»[3]، فإذا كانت هذه طبيعة الجهاد في الإسلام، وأننا مأمورون بمكاوحة الكفار، فكيف يكون الجهاد دفاعيًّا في مراحله الأخيرة؟ بل هو كما قسمه العلماء.

١- جهاد طلبي هجومي: وهو تَطَلُّبُ الكفار في عقر دارهم، ودعوتهم إلى الإسلام، فهذا فرض كفاية، وهذا الذي دعا المسلمين لفتح أوربا وأفريقيا وآسيا، فهل كان المسلمون في حالة دفاع عندما بدأوا هذه البلاد بالقتال؟

٢- جهاد دفاعي: إذا هوجم المسلمون في عقر دارهم، أو تغلب العدو على قطر من أقطارهم، فالجهاد عندئذ فرض عين. يقول ابن حجر: «إن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده، وإما بلسانه، وإما بماله، وإما بقلبه»[4]، ويقول الإمام محمد بن الحسن الشيباني: «حتى لو اجتمعوا على تركه (الجهاد) اشتركوا في المأثم، وإن قال الكفار للمسلمين وادعونا ألا نقاتلكم ولا تقاتلونا فليس ينبغي للمسلمين أن يعطوهم ذلك، وإنما ينتهي القتال بعقد الذمة لما فيه من التزام أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات إلا أن يكون لهم (للكفار) شوكة شديدة فحينئذ تجوز الموادعة ..»[5].

---

(١) الغياثي: ٢٠١.

(٢) الغياثي: ٢٠٩.

(٣) ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٥٢)، تحقيق: د. علي سامي النشار، ١٩٦٧م.

(٤) علي العلياني، أهمية الجهاد: ١٣٥.

(٥) شرح السير (١/ ١٩١).

وإذا كانت الحروب والقتال بين البشر واقعة لا محالة، لما في طبيعتهم من التغالب وحب السيطرة ومد النفوذ، فإن الجهاد من طينة أخرى، فهو غضب للّه ولدينه، وهو في النهاية رحمة بالخليقة، كالطبيب الذي يقطع عضوًا ليسلم باقي الجسم.

*** فوائد الجهاد:**

الجهاد ذروة سنام الإسلام، وهو الذي يعطي المجتمع المسلم الحيوية والحركة، ويبعده عن الفتن الداخلية والتمزق الاجتماعي، فهو في حال السلم (استعداد) وفي حال القتال وحدة صف، ودعوة، وفتح، وغنائم، ونتائجه عظيمة في الدنيا والآخرة، وللفرد والجماعة، والأحاديث المصرحة بهذا كثيرة جدًّا، يمكن الرجوع إليها في مظانها، وأكتفي هنا ببعضها: قال ﷺ: «عليكم بالجهاد فإنه باب من أبواب اللّـه يدفع اللّـه به عن النفوس الهم والغم»[1]، «من اغبرت قدماه في سبيل اللّـه حرمه اللّـه على النار»[2]، «إن للشهيد عند اللّـه خصالاً: أن يغفر له من أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه»[3]. وقد وصف الرسول ﷺ نفسه بأنه نبي الرحمة ونبي الملحمة، وكان الرسول ﷺ يخرج للقتال ويقود الجيوش، وكان هو القائد المنفذ للغزوات الكبار التي وقعت في حياته، ومن أعظم فوائده كسر شوكة الكفار، وإلزامهم الصَغَار، وفتح المجال أمام البشر للتعرف على هذا الدين.

---

(١) الصارم المسلول: ٢٠.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٨٠).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٩١).

*** مرحلية الجهاد:**

لخص العلامة ابن القيم / تلخيصًا جيِّدًا المراحل التي مرّ بها تشريع الجهاد، فذكر أربع مراحل:

١- محرم، وهو مرحلة الكف، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧].

٢- مأذون به.

٣- قتال من قاتل المسلمين.

٤- جهاد الطلب، وهو نشر الإسلام، وتتبع المشركين، وقتال المشركين كافة، وعرض الإسلام عليهم.

ويمكن أن نستكشف من خلال هذه المراحل أنه إذا مرت بالمسلمين حالة ضعف فيمكن أن يرجعوا إلى مرحلة الكف أو المرحلة التي تليها، ويمكن أن يكون الجهاد كالدفاع عن العرض والمال والنفس فقط. يقول ابن تيمية: «إن الحال التي أخبر اللّـه عن رسوله والمؤمنين أنهم يسمعون من الذين أوتوا الكتاب والمشركين أذى كثيرًا، نسخ عند القوة بالأمر بقتالهم، ومن الناس من يقول: الأمر بالصفح باق عند الحاجة إليه بضعف المسلم عن القتال ..»[(١)]. ويقول العلامة ابن الوزير: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ ، ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾: لا دليل على نُسِخَ ذلك وأمثاله، مما وردت به السنة النبوية، ووُصفت به الأخلاق المصطفوية، إلا توهم التعارض، ممّن خفي عليه من اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين ..»[(٢)].

ومن لا يفقه هذه المرحلية وحكمة التشريع، ومقاصد الإسلام، فإنه يضع الآيات التي أنزلت في المرحلة الأخيرة موضع المرحلة الأولى، فيكون من وراء ذلك خطر كبير على الإسلام وأهله، وفشل في الحركات والثورات، وقتل

---

(١) الصارم المسلول: ٢٣٩.

(٢) العواصم والقواصم في الذّب عن سنة أبي القاسم: ١٧٢، دار البشير، عمان، ١٩٨٥م.

للأبرياء وفساد في الأرض، ويستغل الأعداء هذه الأعمال التي تقوم قبل أوانها لاستئصال المسلمين ويستغل المنافقون والحاقدون هذا لتشويه صورة الإسلام.

والأصل ألا يقوم الجهاد إلا إذا كان للمسلمن إمام ودولة، أو عن مشورة من علماء المسلمين الذي يفقهون النصوص، ويفقهون الواقع، إذا لم يكن للمسلمين إمام ودولة.

يقول ابن تيمية: «ودين الإسلام أن يكون السيف تابعًا للكتاب، فإذا ظهر العلم بالكتاب والسنة وكان السيف تابعًا لذلك، كان أمر الإسلام قائمًا، وأما إذا كان السيف تارة يوافق الكتاب وتارة يخالفه كان دين من هو كذلك بحسب ذلك ..»[1].

ويقول أيضًا: «والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد رأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين، فلا يؤخذ برأيهم ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا»[2].

فانظر إلى هذا الكلام السديد، وقارن بما وقع في هذا العصر من حركات جهادية لم يستشر فيها أهل الدين والخبرة فكانت نتائجها مؤسفة، فلا الدينَ نصروا ولا استعدوا الاستعداد الشرعي، ووفروا الدماء والأموال، وأمر الجهاد أمر عظيم لابد له من شروط، ومعرفة الواقع، ومعرفة ظروف الزمان والمكان، وتمايز الصفوف حتى يعرف الحق من الباطل، وينحاز أهل الحق لقياداتهم، وقد منع اللّـه سبحانه وتعالى المسلمين في السنة السادسة من الهجرة من دخول مكة حتى لا يقع قتال فيقتل المسلم الذي يعيش بين ظهراني المشركين دون علم من المهاجمين ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

---

(١) الفتاوى (٢٠/ ٣٩٣).

(٢) اختيارات ابن تيمية (الفتاوى المصرية): ١٨٥.

والجهاد من جنس (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ولابد أن تكون المصالح المترتبة على قيامه أكثر من المفاسد، والجهاد كما هو مشتق لغويًّا من بذل الجهد واستفراغ الوسع لإعلاء كلمة اللَّـه وليس للقتل والقتال بلا نتائج لمصلحة الدين، قال الغزالي: «إذا جاز أن يقاتِل الكفار حتى يُقتل جاز أيضًا له ذلك في الحسبة، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار، فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة»، ويتابع: «يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب والقتل، إذا كان لحسبته تأثير في رفع المنكر أو في كسر جاه الفاسق، أو في تقوية قلوب أهل الدين، فأما تعريض نفسه لهلاك من غير أثر فلا وجه له بل ينبغي أن يكون حرامًا»[1].

وإذا كان شرع الجهاد قد بدأ في المدينة فإن بعض العلماء لا يرى مانعًا من ترتيب أمور الجهاد في حال عدم وجود إمام للمسلمين إذا كان هناك مصلحة في ذلك، يقول الإمام الجويني: «لو شغر الزمان عن وال، تعين على المسلمين القيام بمجاهدة الجاجدين، وإذا قام به عُصَبٌ فيهم كفاية سقط الفرض عن سائر المكلفين ..»[2].

ويقول أيضًا: «لو شغرت الأيام عن قيام إمام بأمور المسلمين والإسلام، ومست الحاجة في إقامة الجهاد إلى مال وعتاد، وأُهُبٍ واستعداد، كان وجوب بذله عند تحقق الحاجات على منهاج فروض الكفايات ..»[3].

فالجهاد بحاجة إلى مال وعتاد، وأهب واستعداد، وفي عصرنا هذا يحتاج إلى أكثر من هذا، يحتاج إلى معرفة الزمان والمكان المناسبين، وإلى معرفة ما يحيط

---

(١) الإحياء (٢/ ٣٤٧ – ٣٤٨)، دار الندوة، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) الغياثي: ٢٦٨.

(٣) الغياثي: ٢٦٩.

بالمسلمين من أخطار، وإلى استشارة أهل الخبرة في السياسة والاقتصاد، وأهل العلم بواقع المسلمين كما قال ابن تيمية، وأن تسبقه الدعوة والتبشير والإنذار، وبيان الإسلام للناس حتى تتميز الصفوف.

والقوة إذا انطلقت دون ضوابط فمن الصعب تلافي آثارها السيئة وربما رجعت النفس إلى الهمجية والقوة المحضة، والتربية العالية هي التي تسمح بالاستمرار في الجهاد بعد الاندفاع الأول.

والحكومات العلمانية تستفز الشباب المتحمس لجره لمعركة خاسرة ،وحتى تقضي على هذه الطليعة المتقدمة من شباب الأمة، وتبرر ضربها لهم بأنها تدافع عن نفسها، وإذا تعاطفت جماهير الأمة مع مثل هذه الأعمال ثم فشلت فإن هذه الجماهير سوف تستسلم لأكثر الحكومات حماقة.

والخلاصة أن الجهاد أمر عظيم، فلا يقوم به إلا من تربى عليه تربية إيمانية راسخة، وعرف فقه الجهاد، وأغراضه، ومراميه، وأحكامه، ووسائله، وقد قام به أعظم قيام الرسول ﷺ، وقام به الصحابة رضوان اللّـه عليهم، وهل أعظم من أن يكون هدف الجهاد تحرير الإنسان، وبذل المسلم دمه في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا اللّـه ..

* * *

(١٣)

يوم الفرقان

كانت بدر معركة الإسلام الأولى التي تواجه فيها الإيمان والكفر، والحق والباطل، وقد هيَّأها اللَّـه سبحانه وتعالى لتكون عزًّا للمسلمين وبداية لانتصارات تعقبها.

خرج المسلمون يريدون قافلة قريش، وهي تجارتهم القادمة من الشام، يقودها أبو سفيان صخر بن حرب، وكانت تحمل أموالاً عظيمة، يحرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً.

خرج المسلمون إلى بدر وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وبلغ أبا سفيان خروج المسلمين لأخذ القافلة، فترك الطريق الرئيسي متجهًا نحو طريق الساحل، وأرسل من يستنفر أهل مكة لحماية تجارتهم. سارعت قريش للخروج، وجنّدت كل طاقتها؛ لأن هذا ضرب لمصالحها الاقتصادية وحَطٌّ لمكانتها بين العرب، وقد صح أن عدد جيش قريش من المشركين الذين خرجوا لحماية القافلة بلغ ألفًا ومع أن القافلة نجت وابتعدت ولكن قريشًا لم يعد همها نجاة القافلة بقدر استعراض قوتها أمام القبائل وتأديب المسلمين بزعمهم.

لم يرتح بعض المسلمين لنجاة القافلة، ولكن اللَّـه سبحانه أراد شيئًا آخر، فجعل في قلوب الذين كفروا حمية الجاهلية، وقد أراد عتبة بن ربيعة العودة بجيش مكة، ولكن أبا جهل بطغيانه وحنقه تغلب على هذا الرأي. استشار رسول اللَّـه ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار فقالوا خيرًا، وسُرَّ رسول اللَّـه ﷺ

بذلك وبشرهم بالنصر، وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة نظّم رسول اللّـه ﷺ جيشه في صفوف، وهو أسلوب جديد لا تعرفه العرب في القتال، وهذا الأسلوب يقلل الخسائر بين المسلمين.

بدأ القتال بمبارزات فردية، ثم التقى الجيشان في ملحمة، قُتِل فيها زعماء المشركين من أمثال: أبي جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة.. وقتل منهم سبعون، وأُسِر سبعون، وفرَّ الباقي لا يلوون على شيء، واستُشهِد من المسلمين أربعة عشر رجلاً.

إن فقه غزوة بدر وغيرها من الغزوات فقه كبير، وله صلة بحياة المسلمين بكل عصر، والسيرة معين لا ينضب لمن كان له عقل أو سمع، وسنجتزئ بالتعليق على بعض أحداث الغزوة ولا نستوعب كل الدروس، ونختار أحيانًا أحداثًا معينة، وخاصة بما يتعلق بواقعنا المعاصر، وهذا سيكون بإذن اللّـه منهجنا في كل الغزوات..

***

- ١ -

كانت وجهة المسلمين في بداية الأمر أخذ قافلة قريش التجارية والتي يقودها أبو سفيان صخر بن حرب عائدًا من الشام، وقد حضهم رسول اللّـه ﷺ على الخروج للقافلة بقوله: «علّ اللّـه يُنْفِلُكُموها»، والمسلمون في حرب مع قريش، ولا مانع من إنهاكها اقتصاديًّا، وهي التي بطرت معيشتها، ولم تشكر خالقها الذي ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

إن بعض الضعفاء من المسلمين اليوم يقولون إن مهاجمة القافلة إنما كانت لتعويض المسلمين المهاجرين ديارهم وأموالهم التي تركوها في مكة. نعم إن بعض المهاجرين تركوا أموالهم واستولت قريش على دورهم، ولكن الرسول ﷺ كان

يمارس ضغطًا اقتصاديًا على قريش، وهذا شيء مشروع عندما يكون الطرفان في حالة قتال، وقد أذن اللّـه لرسوله في غزوة بني النضير بقطع نخيلهم إحكامًا للحصار عليهم ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر: ٥]، وهذا لا يعني أنه في الحالات التي تكون العلاقة بين المسلمين وغيرهم ليست علاقة حرب وقتال، وإنما هي سلم أو هدنة أن تستباح أموالهم، بحجة إضعافهم اقتصاديًا، فالإسلام يأبى هذه الأساليب الملتوية، وغير الأخلاقية، وهي تدل على جهل بهذا الدين وسياساته الشرعية.

- ٢ -

جاء في «صحيح مسلم» في الجهاد، باب الوفاء بالعهد: قال حذيفة بن اليمان: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريد إلا المدينة، فأخذ العهد علينا: لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأخبرنا النبي ﷺ فقال: «نَفِي العهدَ ونستعين باللّـه عليهم».

هذه الأخلاق، وهذا الوفاء بالعهود، شيء لم تعهده البشرية من قبل، ولم ترق إلى هذا المستوى أبدًا، صحابي يحضر بدراً ولا يقاتل مع المسلمين وفاء بالعهد مع الكفار؟! أظن أن هذا شيء لا تحتمله عقول بعض المسلمين اليوم، فالمسلم ملزم بالوفاء بالعهد ولو كان للكافر كما قال ميمون بن مهران: «ثلاث؛ المسلم والكافر فيهن سواء: الأمانة تؤدها لمن ائتمنك، والبر بالوالدين ولو كانا كافرين، والعهد تفي به للمؤمن والكافر»، وبعض المسلمين اليوم يعتقدون أن الغاية تبرر الوسيلة ولا مانع من نقض العهد، واستعمال الوسائل الدنيئة للوصول إلى الأهداف.

- ٣ -

أوصى رسول اللّـه ﷺ بالمحافظة على حياة بعض المشركين الذين خرجوا إلى بدر مكرهين خائفين من لائمة قومهم، ومنهم من قدّم للمسلمين يدًا في العهد المكي، وسمّى منهم أناسًا من بني عبد المطلب، وأبا البختري بن هشام، وجاء في الحديث: «من استطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كرهًا»[1]، وأما أبو البختري فلأنه كان أَكفَّ القوم عن رسول اللّـه ﷺ وممن قام بنقض الصحيفة، وقد أُسر العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، وأما أبو البختري فقد أبى إلا القتال فقُتل، ويذكر البلاذري في أنساب الأشراف أن النبي ﷺ قال لجبير بن مطعم بن عدي: «لو كان أبوك حيًّا فاستوهبني هؤلاء الأسارى لوهبتهم له، وشفعته فيهم»[2].

إن الإسلام لا ينسى المعروف الذي يقدم له، بل يجازي عليه ولو كان من غير المؤمن، ويفهم من وصية رسول اللّـه ﷺ التفريق بين أئمة الضلال والكفر الذين آذوا رسول اللّـه ﷺ أو المسلمين، وبين من لم يؤذه، بل سعى في التفريج عن المسلمين حمية وإباء، ولم يخش رسول اللّـه ﷺ عندما أوصى ببني عبد المطلب أن يقال: يحابي عشيرته وأهله؛ لأن الحق أحق أن يتبع ولا يلتفت إلى كلام الناس، ويجب ألا تضيع حقوق الأقارب أو منزلتهم خوفًا من تهمة المحاباة.

- ٤ -

بعد الانتصار الكبير في بدر، وفي طريق العودة إلى المدينة، قَتل رسول اللّـه ﷺ اثنين من الأسرى، ممن كان يؤذي رسول اللّـه ﷺ في مكة، ومن أئمة

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/ ٩٧)، قال المحقق: إسناده صحيح، وانظر: أحمد محمد العليمي، مرويات غزوة بدر: ٢٦٠، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ١٩٨٠م.

(٢) أنساب الأشراف (١/ ١٥٣).

الكفر والعناد، النضر بن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط، قتلهما صبرًا[1]، وعندما قدم عقبة للقتل قال: مَنْ للصبية يا رسول اللَّـه؟ فأجابه: النار[2].

هذه السياسة النبوية يجب على المسلمين معرفتها واتباعها، فلا يجعلون أعداء اللَّـه في كفة واحدة، وأن الجميع سواء إذا لم يعلنوا التزامهم الكامل بالإسلام، ويعاملون معاملة الملحد المرتد، والمنافق العلماني مثل الذي لا يعلن عداوته للدين، بل يأتي ببعض الواجبات، وقد يكون بعضهم مع المسلمين لمحاربة عدو مشترك، ولا يفرقون بين من انطوى على الحقد والضغينة للإسلام وبين من هم أقل شرًّا وسوءًا، ومن هم على الحياد.

- ٥ -

الخلاف حول الغنائم:

جاء في «صحيح سنن أبي داود» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّـه ﷺ يوم بدر: «من فعل كذا وكذا، فله من النفل كذا وكذا»، قال: فتقدم الفتيان، ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها، فلما فتح اللَّـه عليهم، قال المشيخة: كنا ردءًا لكم لو انهزمتهم إلينا، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى، فأبى الفتيان، وقالوا: جعله رسول اللَّـه ﷺ لنا، فأنزل اللَّـه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ ..﴾»[3]. وهذه الرواية تحصر الخلاف

(١) يعني أنهم يقتلون بعد حبسهم.

(٢) د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة (٢/ ٣٧١)، وقال: الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٢٢)، بتصحيح الألباني، وانظر: رواية الحاكم وهي قريبة من هذه الرواية، وقد صححه ووافقه الذهبي.

بين الفتيان والأشياخ، وقد رجحها الشيخ محمد أمين المصري / على الرواية التي تجعل الخلاف بين فئات ثلاث؛ الشباب والشيوخ والفئة التي جمعت الغنائم، وتقول: نحن حويناها فهي لنا، يقول: إسناد أبي داود خال من الشوائب، ثم إن الصورة التي تعطيها هذه الرواية لا مطعن فيها إذ تذكر أن الرسول ﷺ دفع الشبان إلى الإقدام، وهذا دفع للشبان معقول مألوف، كما إن رواية الحاكم لا تذكر خصومة ولا إباء[1].

ولا يقال في هذا الموضع: كيف يختلف الصحابة على المغنم؟ فالصحابة بشر، وهنا تكمن عظمتهم، فإن أخطأ بعضهم فما إن يتنزل النص ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال: ١]، حتى تهدأ النفوس ولا يبقى لهذا الخلاف أثر، وينزل المسلمون على حكم اللّـه وحكم رسول اللّـه ﷺ، وقد «كان التنافس بين الشيوخ والشباب، وهو أمر من واقع الحياة، أن ينفس الشباب على الشيوخ بما وعدهم رسول اللّـه ﷺ، جزاء على مقدرتهم الفائقة على الإقدام على أمور يعجز عنها الشيوخ ..»[2]. وتبقى كلمة المشيخة: (كنا ردءًا لكم)، حبذا لو يسمعها الشباب المسلم في كل وقت، فالجميع يساهم في العطاء، وليس أضر على الأمة من أن ينفرد الشباب المتحمس بالقرار أو العمل دون مشورة من (المشيخة)، والأسوأ من ذلك أن ينظر الشباب نظرة استعلاء إلى ما يمكن أن يقدمه الطرف الآخر.

---

(١) من هدي سورة الأنفال (٣٣ – ٣٨)، وانظر: مرويات غزوة بدر: ٢٨٥.

(٢) من هدي سورة الأنفال: ٣٥.

استثمار النصر:

جاءت التربية القرآنية بعد بدر لتوجه النداء تلو النداء لترسخ هذا الفتح ويستمر مثل هذا النصر، ولا يقع المسلمون في نشوة الظفر، وتصبح بدر من الذكريات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: ١٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥]، إنه لأمر غاية في الأهمية، أن يجني المسلمون ثمار الجهاد والنصر، ويحافظوا على الإنجازات التي تمت، ويتقدموا إلى موقع جديد، حتى لا يرجعوا القهقرى إلى نقطة البداية.

جاء في السيرة أن رسول اللّـه ﷺ مكث بعد منصرفه من بدر سبعة أيام ثم خرج بنفسه الكريمة يريد بني سليم، فبلغ ماء يقال له الكُدْر، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم انصرف ولم يلق أحدًا[1]، ثم غزا رسول اللّـه نجدًا، في ذي الحجة يريد غطفان، ثم غزا قريشًا في ربيع الأول[2]، وكل هذا استثمار للنصر في بدر، وإرهاب لأعداء اللّـه.

---

(١) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير: ٣٩، دار المعارف، مصر، ط٢، تحقيق: شوقي ضيف.

(٢) المصدر السابق: ١٤٠.

ورغم انتصار هذه الفئة القليلة ولكن الآيات في سورة الأنفال لم تذكر أعمال البدريين، ولكن ذكرت عتابًا أليمًا موجعًا ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧]، وتذكر فضل اللَّـه عليهم ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ١٨]، «فالآيات الكريمة دفعت عن المؤمنين أي شعور بالاستعلاء وصرفت عن أنفسهم كل معنى من معاني الغرور: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٩].

ولكن هناك ثناء عن طريق الإشارة لا بصريح العبارة بأن اللَّـه سبحانه اختار هذه الصفوة لأمر عظيم عندما طالبهم بإصلاح ذات البين، وطاعة اللَّـه ورسوله إن كانوا يحملون رسالة الإيمان»[1]، إن داء الغرور بعد النصر يؤدي إلى الركون وفتور العزائم، وهكذا نزلت آيات الأنفال تربية عالية من لدن حكيم خبير.

قام في العصر الحديث جهاد إسلامي، وجهود لتحرير الأوطان من تسلط الغربيين، وقامت حركات إسلامية وقدمت تضحيات غالية لاستئناف الحياة الإسلامية، ولكن أهل الباطل سرقوا هذه الجهود، واستغلوها لصالحهم، بل أتقنوا هذه الصنعة، فما إن تقترب الثمرة من المسلمين حتى يتقدم لها الانتهازيون العلمانيون، لتبدأ المفاوضات مع العدو، وتبدأ التنازلات وتتم الاتفاقيات المخزية، ويقع المسلمون تحت الأمر الواقع، وستكون المقاومة في مثل هذه الظروف أصعب؛ لأن المسلمين سيقاتلون أناسًا من بني جلدتهم.

---

(١) محمد أمين المصري: من هدي سورة الأنفال: ٦٤.

هكذا وقع الأمر وجرت الأحداث في الجزئر والمغرب وفلسطين ومصر، وغيرها من الأقطار، ولم يستطع المسلمون استثمار جهودهم لصالح التمكين في الأرض، وإعلاء كلمة اللَّـه، فهل يبقى المسلمون كمن يمسك بقرني البقرة وغيرهم يحلبها؟!..

- ٧ -

لم يصدق بعض المسلمين الذين لم يشهدوا الغزوة أن قريشًا قد هزمت هذه الهزيمة النكراء، وأن زعماءها قد أسروا وربطوا بالحبال، وقد رأت أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي اللَّـه عنها سهيلاً بن عمرو ويداه مجموعتان إلى عنقه بالحبل وهو من أسياد مكة، فكان لفرط دهشتها أن أسرعت بالقول: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم، ألا مُتّم كرامًا، فقال رسول اللَّـه ﷺ: «أَعَلى اللَّـه وعلى رسول اللَّـه»، فقالت: «يا رسول اللَّـه، والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت»[1].

لم يغضب رسول اللَّـه ﷺ لكلمة قالتها أم المؤمنين رضي اللَّـه عنها، وإنما نبهها إلى خطورة كلامها، وهو يعلم أنها ما قالت ذلك إلا لوقع المفاجأة، والعربي يفضل القتل على الأسر.

إن المسلمين مدعوون للتعامل فيما بينهم بهذه الأخلاق، فلا يفسرون أي كلمة تصدر عن أحدهم تفسيرًا بعيدًا، يدل على سوء النية والطوية، فإن المسلم الثقة قد تصدر منه الكلمة، لا ينتبه لها فلا تؤخذ عليه، ولا تنشر في الآفاق.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٠)، دار المعارف، ط٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

البدريون:

ترسخ في المجتمع الإسلامي الأول أن طبقة البدريين من الصحابة لها ميزة خاصة، فقد ثبت من حديث رسول اللَّـه ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه قال: «لعل اللَّـه اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[(١)]، وقد قدمهم عمر بن الخطاب في خلافته، ففرض لهم من العطاء أكثر من غيرهم، وجرى العرف على ذلك عند كتاب التاريخ والسير، حيث يذكرون طبقة البدريين، ثم أهل بيعة الرضوان، ثم من أسلم قبل الفتح .... إلخ، فهناك الذين طالت صحبتهم، وبذلوا أموالهم ودماءهم، وهناك من رآه في حجة الوداع، وبين هؤلاء وهؤلاء درجات، وهناك من لازمه في الليل والنهار وعرف عنه كثيرًا من دقائق الأعمال وشريف السنن، فلا يعقل أن يكون جميع الصحابة في مرتبة واحدة[(٢)].

هذه الأفضلية وهذا التقسيم ليس من الطبقية المذمومة في شيء، وليست من الطبقات التي يعلو بعضها على بعض ويتفاوتون بها كما نجد عند الأمم الأخرى، ولكنه التقدير والاحترام لمن كان في أول الدعوة وحضر مع رسول اللَّـه ﷺ جهادها، وقاسى همومها، وعاش نزول القرآن من أول يوم.

والمجتمع الذي لا يحظى أبطاله وعظماؤه بالتقدير والتكريم لاشك أنه مجتمع ممزق حسود لا خير فيه.

* * *

---

(١) صحيح أبي داود (٣/ ٨٨٠).

(٢) محمد عجاج الخطيب: السُّنة قبل التدوين: ٣٩١.

(١٤)

غزوة بني قينقاع

الصراع مع اليهود

عندما قدم رسول اللّـه ﷺ المدينة كان مجتمعها يتألف من العرب (الأوس والخزرج)، والذين هم من الأزد وقد أسلم غالبهم، ومن اليهود الذين استقروا بها بعد نزوحهم من الشام في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وبعد أن نجح الرومان في السيطرة على بلاد الشام ومصر في القرن الأول قبل الميلاد.

وربما يكون اختيارهم لهذه الأماكن في الحجاز (المدينة، خيبر، وادي القرى) لعلمهم أن نبيًّا سيخرج ويكون في منطقة فيها نخيل وحرار، وربما أملوا أن يكون هذا النبي منهم، وقد توطنوا في الأماكن الخصبة في المدينة. وكما هي عادة اليهود، فإنهم عاشوا وتمكنوا بسبب تفرق الأوس والخزرج وقتالهم المستمر، واليهود يشجعون هذا ويؤججون العداوة بينهم، وكانوا يستفتحون عليهم ويقولون لهم: سيبعث نبي نؤمن به ونقتلكم، فلما بعث من العرب حسدوه وكفروا به وألبوا عليه، ولم يسلم منهم إلا أعداد محدودة جدًّا، منهم عالمهم وحبرهم عبد اللّـه بن سلام رضي الله عنه. وهذا دأبهم مع الأنبياء والمصلحين فإنهم قوم قد فسدت فطرتهم وانحرفت عن سواء السبيل، يحملون أثقالاً من الالتواء الخُلُقي والعقد النفسية، ويحملون صفات بني إسرائيل التي غضب اللّـه عليهم من أجلها، وقد ذكرت في القرآن كثيرًا ومنها:

١- **غرورهم في الدين** ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨].

وهذه العقيدة من أسوأ ما تصاب به الأمم، فهي تورث العجب والعنصرية واحتقار الغير.

٢- سوء استعمال العلم، وتحريفهم لكلام اللّـه، وكتمهم للحق.

٣- نقضهم للعهود والمواثيق ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ [البقرة: ٨٣ وما بعدها].

٤- **عبادة المال والدنيا** ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

٥- وبهذه الأخلاق أصبحت قلوبهم قاسية يكرهون دعاة الخير، ويقتلون الأنبياء وفيهم تدين فاسد يهتمون فيه ببعض المظاهر والرسوم.

واجه رسول اللّـه ﷺ هذه النفوس الملتوية، وهذا المكر والنفاق بأحسن السياسات وأعظمها نفعًا لهم ولأمثالهم، فقد وادعهم، ونظم العلاقة معهم، وحدد لهم واجباتهم وحقوقهم، وقد ذكر ابن إسحاق – دون إسناد – أن رسول اللّـه ﷺ كتب لهم كتابًا في ذلك، وتابعه كثير من الكتاب والمؤرخين، كما وردت هذه الوثيقة عند أبي عبيد القاسم بن سلام مسندة إلى الزهري، ولكنها ضعيفة[1]، فلم يثبت شيء منها من الناحية الحديثية.

---

(١) السيرة الصحيحة (١/ ٢٧٣).

وربما كانت هناك موادعة غير مكتوبة، ولكن بعد مقتل كعب بن الأشرف خاف اليهود وطلبوا كتاب موادعة لهم، فكتب لهم رسول اللّـه ﷺ ذلك، وقد رُوي أن بني قريظة مزقوا ذلك الكتاب عندما نقضوا العهد أثناء غزوة الأحزاب وسبب الوهم في هذه الوثيقة أن الرسول ﷺ كتب كتابًا ينظم العلاقة بين المسلمين أنفسهم أورده الإمام أحمد في «مسنده»، ويبدو أن المؤرخين جمعوا بين هذه الوثيقة والوثيقة التي أوردها ابن إسحاق دون سند، ووردت عند غيره بإسناد ضعيف. ولكن لابد من القول هنا أنه وإن كانت وثيقة الموادعة مع اليهود لم تثبت حديثيًّا، فإن تنظيم مجتمع المدينة وتنظيم الدولة في نشأتها لا يأبى ذلك فلا يترك جزءاً من مجتمع المدينة دون تحديد ما لهم وما عليهم، ولتكون الأمور واضحة لا لبس فيها، ومما ذكر من شروط الموادعة: أن لا يمالئوا عدو المسلمين، وأن ينصروا الرسول ﷺ على من دهم المدينة، وأن يشاركوا في الالتزامات المالية، ولكنهم كعادتهم لم يفوا بهذه العهود والعقود، ولم يستطيعوا إخفاء نواياهم وإحَنَ صدورهم وغلَّ قلوبهم، فبعد انتصار المسلمين في بدر شرقوا بهذا النصر، وقالت بنو قينقاع للرسول ﷺ: لا يغرّنك أن قاتلت قومًا لا يعرفون القتال، وقادهم هذا الغرور والحقد إلى أن نقضوا عهدهم، فحاصرهم الرسول ﷺ في شهر شوال من السنة الثانية خمس عشرة ليلة، فلما اشتد ذلك عليهم نزلوا على حكم رسول اللّـه ﷺ على أن له أموالهم، ثم كلمه فيهم حليفهم عبد اللّـه بن أبي بن سلول وألح في ذلك، فقال له رسول اللّـه ﷺ: «هم لك». وأمرهم أن يجلوا عن المدينة، فخرجوا إلى أذرعات في الشام.

وكان حريّاً بهذه الحادثة أن تردع بني النضير أو بني قريظة عن الخيانة ونقض العهد، ولكن الذي يسوقه الحقد والحسد، وعدم المبالاة بالعهود، وأن ليس عليهم في الأميين سبيل، لا يرتدع وستمضي به الأمور إلى حتفه.

وبعد بني قينقاع جاء دور بني النضير الذي نقضوا عهدهم بعد غزوة أحد، وهموا باغتيال الرسول ﷺ عندما ذهب إليهم يطلب المساهمة في بعض التكاليف المالية، ويذكر موسى بن عقبة أنهم قاموا أيضًا بتحريض قريش وتقديم المعلومات لهم.

حاصر الرسول ﷺ بني النضير إلى أن استسلموا وتقرر إجلاؤهم عن المدينة، وعلى أن لهم ما حملت دوابهم إلا السلاح، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ليحملوا منها ما يقدرون عليه، وفيهم نزلت أوائل سورة الحشر، وتوجه بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام. وكان بنو قريظة قد جددوا العهد مع الرسول ﷺ أثناء حصاره لبني النضير.

ولكن أخلاق اليهود ونقضهم للعهود ما لبثت أن تغلبت عليهم، واستطاع زعيم بني النضير (حيي بن أخطب) أن يغري بني قريظة بنقض العهد في أحلك الساعات وأشدها على المسلمين، وذلك أثناء غزوة الخندق، وحين تحزبت الأحزاب، واجتمعت كافة عليهم، واستجابت قريظة لمكر حيي بن أخطب فذاقت وبال أمرها، فقد أُمر الرسول ﷺ بعدانتهائه من الأحزاب ورجوعهم عن المدينة بمعاقبة بني قريظة على خيانتهم فأسرع رسول اللّـه ﷺ ومعه كتائب المسلمين لحصارهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان حليفهم في الجاهلية، فحكم عليهم بقتل الرجال، وسبي الذراري والنساء، وقسم الأموال، وهكذا تطهرت المدينة من يهود الذين لا يراعون عهدًا ولا ذمة واستراح المسلمون منهم.

وهذا الذي فعله رسول اللّـه ﷺ بهم هو العلاج الصحيح وهو العلاج الحاسم لمثل هذه الفئات التي لا ترقب في المؤمنين إلاً ولا ذمة، فقد وادعهم وعاهدهم ووفى بوعده، ودعاهم إلى الإسلام، فلمّا نقضوا العهود، كان الرد

حازمًا وسريعًا، ولم يعطهم فرصة للمناورة والمداورة، وربما لم يتوقعوا هذا من رسول اللّـه ﷺ، وظنوا أنهم يستطيعون بالكذب والاحتيال وبمساعدة المنافقين لهم أن يخدعوا محمدًا ﷺ كما كانوا يخدعون العرب، ويسعون لتفريق صفوفهم، لقد وجدوا هنا شيئًا مختلفًا، وفي كل العصور عندما كان العرب يعودون إلى جاهليتهم وإلى سذاجتهم وبساطتهم يُخدعون من قبل أعداء الإسلام، وتأكلهم الأمم الأخرى، خاصة وأن حب الرئاسة متمكن منهم، بل يعميهم ويصمهم.

لقد ابتُلي المسلمون في هذا العصر باليهود الذين استنصروا بالدول الغربية، وجمعوهم إلبًا واحدًا على المسلمين، واستولوا على بقعة عزيزة على المسلمين ألا وهي أرض فلسطين، ولم يجدوا ما يردعهم ويكفهم عن هذا العدوان، فالعرب كانوا قد عادوا إلى تفرقهم وضعفهم بسبب تركهم لمصدر عزهم ومصدر توحدهم وهو الإسلام، وبدأت بذلك حلقة جديدة من حلقات الصراع الطويل وهو صراع عميق وكبير، لا لأنه بين معتد ومعتدى عليه، بل لأنه صراع بين الحق والباطل، فإن وراء اليهود الحضارة الغربية بكل وسائلها وإمكاناتها، وهذا من سنة التدافع وحتى يظهر الخبيث من الطيب وتبتلى شعوب المنطقة لعلها تتذكر أو تخشى وتكون العاقبة للمتقين.

* * *

(١٥)

سنن اللَّـه في النصر والهزيمة

منذ هزيمة قريش في بدر وهي تعد لمعركة تالية، فجمعت الجموع مع حلفائها فكانوا قريبًا من ثلاثة آلاف من المقاتلين، وقائد الفرسان فيهم خالد بن الوليد، وجاؤوا المدينة وعسكروا قريبًا من جبل أحد.

شاور الرسول ﷺ أصحابه وكان من رأيه البقاء في المدينة والتحصن بها، وقتال المشركين في طرقها وأزقتها ومن فوق الأسطحة، ولكن جماعة من فضلاء الصحابة ألحوا على الرسول ﷺ بالخروج إلى المشركين، وكان أكثرهم من الشباب، وبعضهم ممن لم يحضر بدرًا، فأرادوا مواجهة المشركين على الطريقة المعتادة وكأن هذا الرأي كان رأي الأكثرية، فنزل رسول اللَّـه ﷺ عن رأيه ودخل منزله، ولبس عدة القتال، وخرج إلى أحد بألف من المسلمين وفي الطريق انسحب المنافق عبد اللَّـه بن أبي بن سلول ومعه ثلاثمائة من أصحابه، منتقدًا الرسول ﷺ لأنه سمع كلمة الشباب.

نظم رسول اللَّـه ﷺ المسلمين فجعل ظهره إلى جبل أحد، وجعل على جبل صغير اسمه (عينين) الرماة وعددهم خمسون صحابيًّا، وأمرهم ألا يغادروا الجبل ولو كان النصر للمسلمين.

بدأ القتال وكانت الدولة في أول النهار للمسلمين ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، وانهزم المشركون، فلما رأى الرماة هزيمة المشركين تركوا مراكزهم عدا أميرهم ومعه عشرة من الصحابة، وكرّ فرسان المشركين عندما رأوا الجبل خاليًا وأحاطوا بالمسلمين، ورجعت المعركة مرة ثانية، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى رسول

اللَّـه ﷺ فشج وجهه، وكسرت رباعيته، واستشهد من المسلمين سبعون صحابيًّا منهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير..

قاتل المسلمون حول رسول اللَّـه ﷺ قتالاً شديدًا منهم طلحة بن عبيد اللَّـه، وأبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وقاتلت في هذه المعركة أُمُّ عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وأجهد المشركون من هذه المقاومة وانسحب رسول اللَّـه ﷺ إلى سفح أحد وانسحب المشركون أيضًا من المعركة وقد يئسوا من إنهائها، وتعبوا من جلادة المسلمين. وقُتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً.

ظلت ذكرى شهداء أحد عميقة في نفس الرسول ﷺ فعندما تراءى له جبل أحد وهو قافل من تبوك قال: «هذا جبل يحبنا ونحبّه»[1]، وعن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يومًا فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فَرَط لكم، وإني شهيد عليكم ...»[2] الحديث، وكأنّه ﷺ صلّى عليهم صلاة مودع، إنها ذكريات أليمة، لقد أودع في سفح جبل أُحُد أحباءه من أمثال مصعب بن عمير وحمزة بن عبد المطلب، وسعد بن الربيع، وعبد اللَّـه بن جحش، وغيرهم من الصحب الكرام.

إن ما أصاب المسلمين في أحد من جراحات وآلام، وأعظمها على أنفسهم ما أصاب رسول اللَّـه ﷺ حين شُجّ وكسرت رباعيته، كان من عند أنفسهم بعد أن كان النصر لهم أول النهار، ومع ذلك فإن في هذه الأحداث حِكَماً بالغةً، كانت مناسبة ليتعلم المسلمون سنن اللَّـه تعالى في النصر والهزيمة، وأسباب الخير والشر، وأمر المؤمن كله خير إن أصابه ضراء صبر، وإن أصابه سراء شكر، قال

---

(١) فتح الباري (٧/ ٤٣٦)، كتاب المغازي.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٤٣٧.

شيخ الإسلام ابن تيمية: «كما أن نصر اللَّـه للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة، فهزيمتهم يوم أحد كانت نعمة ورحمة»[1].

تحدث القرآن طويلاً عن غزوة أحد كما جاء في سورة آل عمران، تحدث في بعضها عما كان يدور بخلجات المسلمين، وبعضها كان تعقيبًا على ما وقع من الصحابة، وبعض الآيات مسحت جراحات المسلمين وآلامهم، وأنهم هم الأعلون، ونجتزئ هنا بعض الدروس المستفادة:

*** الشورى:**

عندما سمع رسول اللَّـه بمجيء قريش وحلفائها، وقد عسكروا قريبًا من أحد، استشار أصحابه مشورة عامة حول الخروج إلى العدو، أو التحصن في المدينة وقتال العدو على أفواه السكك وأسطحة البيوت، أي اتخاذ الخطة الدفاعية، مال أكثر المسلمين – والشباب خاصة – للخروج لملاقاة العدو، وكان أكثرهم حماسًا لهذا الرأي الذين لم يشهدوا القتال في بدر، واستجاب الرسول ﷺ لهذا الرأي مخالفًا رأيه الخاص ورأي بعض مشيخة الصحابة، فدخل إلى منزله ولبس لأمة الحرب، ومضوا إلى أحد، وكان ما كان من مخالفة الرماة لأمر رسول اللَّـه ﷺ، الذين شدد عليهم بألا يتركوا أماكنهم مهما كانت النتائج، ودارت الدائرة على المسلمين، بعد أن كانوا كما وصفهم اللَّـه سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ .. ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وانتهت المعركة باستشهاد سبعين صحابيًّا وجرح الرسول ﷺ وكسرت رباعيته ونزلت الآيات تبين للرسول ﷺ أنّه على رغم ما وقع من بعضهم فيجب أن يستمر على ما هو عليه من خلق عظيم في تعامله معهم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٣٢).

لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول الشيخ رشيد رضا: «أي دم على المشاورة وواظب عليها، كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة، وإن أخطؤوا الرأي فيها، فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل»[(١)].

وليس هذا مكان الحديث عن الشورى بالتفصيل، ولكن لابد من التنبيه على أهمية وخطورة هذا الموضوع في حياة المسلمين، فقد عانوا كثيرًا من شرور الاستبداد بالرأي وإبعاد أهل العلم والفضل الذين تحتاج الأمة إليهم في أمر سياستها وإدارة شؤونها، وقد مدح اللّـه سبحانه وتعالى المسلمين بأن الشورى من خصائصم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقد يفرق هنا بين الشورى والاستشارة، فالأخيرة يجب أن يمارسها كل مسلم له مسؤولية، حتى يجمع عقول الناس إلى عقله، وقد يستشير المسؤول أي اختصاصي ليطلع على جلية الأمر، ولكن الشورى تعني اتخاذ القرار بما يتعلق بشؤون الأمن والخوف، والسلم والحرب، وغير ذلك من مصالح الأمة التي «ليست في الحلال والحرام أو الحدود، فتلك قوانين شرع ما فرطنا في الكتاب من شيء»[(٢)]، فهذه لابد لها من فئة خاصة (أهل الحل والعقد) وهم الذين يبرمون مثل هذه الأمور، ويتخذون فيها القرار، وهم الذين يشرفون على تنفيذها تنفيذًا صحيحًا، وهم الذين يراقبون الحاكم فلا يشتط، ولا ينحرف عن أمر الشرع، يقول ابن عطية: «والشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٩٩).

(٢) تفسير ابن عطية (٣/ ٣٩٧).

والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه»[1]، وقد كان رسول اللّـه ﷺ أكثر الناس استشارة لأصحابه مع أنه مؤيد بالوحي، ثم سار على هذه السنة الخلفاء الراشدون، يقول ابن عطية: «والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة – وهي أعظم النوازل – شورى»[2]، فإذا لم يكن هناك استشارة، وهي أمر متيسر؛ لأنه يقع باستشارة أهل الاختصاص أحيانًا دون الرجوع إلى مجموع أهل الحل والعقد، ولم يكن هناك شورى باجتماع أهل الحل والعقد، فماذا يكون بعد ذلك غير استبداد الرأي وغير ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وما ينتج عنه من تفرق الأمة، وضعف الأخلاق والهمم.

وأما السؤال الذي يثار هنا: هل الشورى ملزمة، أم معلمة، أي أن الحاكم أو المسؤول له أن يستشير ولكن القرار النهائي يعود إليه؟

فالحقيقة أن طرح موضوع كبير بهذا التبسيط لهو أمر غير مقبول، وإن الذين يطرحون الموضوع بهذه الطريقة ليس عندهم إحساس تاريخي، أو إحساس بخطورة التحديات التي تواجه المسلمين، وإن استمراءهم لمنهج البعد عن الشورى جعلهم يقولون بأنها معلمة.

إن الذي يستعرض تفاصيل تاريخ المسلمين فسيرى أن من أكبر أسباب ضعف المسلمين هو الحكومات المستبدة التي تعاقبت على الحكم، وخاصة الحكومات الإقليمية الصغيرة، عندما تَشظَّت الخلافة الإسلامية في بغداد، وإن الإحساس بالخطر الخارجي من أقوى أسباب نهضة المسلمين، ولا تقوم نهضة المسلمين إلا على مؤسسات جماعية، ولابد في هذه المؤسسات أن تقوم على الشورى والاستفادة من الخبرات والعقول الراجحة.

---

(١) تفسير ابن عطية (٣/ ٣٩٧).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٩٨).

لقد استشار رسول اللَّـه ﷺ في أسارى بدر خاصة الصحابة، أبا بكر وعمر، واستشار في مسألة خاصة أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب، واستشار زعماء الأمة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في إعطاء ثلث ثمار المدينة للأعراب لإبعادهم عن تحالف الأحزاب، واستشار الجميع في مسألة عامة مثل أحد، واستجاب لرأي الأكثرية، وقد مال أكثر العلماء والمفكرين الإسلاميين في العصر الحديث إلى وجوب الشورى، وأنها ملزمة، وعلى الحاكم التقيد بنتائجها، لأن أي رئيس أومسؤول لا يكون عادة عملاقًا بين أقزام، بل يكون واحدًا من بين نخبة، يقاربونه في الفهم والعلم، وستظل حصيلة آرائهم أكبر من حصيلة رأيه.

*** سنن اللَّـه:**

من أعظم الدروس التي تلقاها المسلمون في أحد وما بعد أحد، ما أخبرهم سبحانه وتعالى من أن أمر النصر أو الهزيمة، وأمر العز والذل، والقوة والضعف، والفقر والغنى، كل هذا يجري حسب سنن اللَّـه التي وضعها اللَّـه في الكون، وليس الأمر جُزافًا ولا أُنُفًا «وليس مجموعة من المصادفات، ولا تدفقًا عشوائيًّا، لو كان الأمر كذلك لما أمكن أن يستفيد الإنسان من تجربة، ولما دعانا ربنا أن ندرس تاريخ الإنسانية»[1].

والسنن جمع سنة، وهي الطريقة المعبدة، والسيرة المتبعة، يقول ابن تيمية ⁄: «والمقصود أن اللَّـه أخبر أن سنته لن تتبدل ولن تتحول، وسنته عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنّه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة، ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾، وقال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، أي أشباههم ونظراءهم»[2].

---

(١) د. عبد العزيز كامل، دروس من أحد: ١٢٣.

(٢) الفتاوى (١٣/ ٢٣).

فلابد للمسلم أن يعرف هذه السنن، ويوطن نفسه على السير معها ولا يغتر بدينه ويظن أنها لا تصيبه لأنه مسلم، وأن النصر حليفه دائمًا وإن خالف وعصى ولم يأخذ بالأسباب، نعم إن اللّـه سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالنصر والتمكين، وأعطاهم ما لم يعط لغيرهم مثل النصر بالرعب، وتأييد الملائكة، ونصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، ولكن كل هذا لا يمنع المسلم من الاستعداد والأخذ بالأسباب، بل هذا واجب عليه.

لقد استغرب المسلمون ما وقع في أحد ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى معقبًا على أحداث أُحُد ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، يقول لهم إن مصارعة الحق والباطل وغير ذلك قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة، وأنتم الذين قصَّرتم وعصيتم الرسول ﷺ، ثم يدعوهم إلى النظر في سير الأقدمين وما حل بهم، فهذا يكسب الإنسان تجربة من قياس الشبيه بالشبيه، «فهناك إذن توسع مكاني وزماني في الدراسة يستهدف معرفة وتعميق وعينا بسنن اللّـه في الحياة»[1].

يقول ابن تيمية: «وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا اللّـه[2]، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك، كان على عهد الخلفاء يدفع اللّـه عنهم بإيمانهم وتقواهم»[3].

---

(١) د. عبد العزيز كامل، دروس من أحد: ١٢٣.

(٢) يقصد عام الحرة زمن يزيد بن معاوية.

(٣) الفتاوى (١١/ ١١٤).

ولقد تكرر في القرآن ذكر سنة اللَّـه سبحانه وتعالى التي لا تتبدل ولا تتحول وتكرر الأمر للمسلمين بالنظر والسير في الأرض، ليروا كيف تكون عاقبة الذين ظلموا وكيف تنهض الأمم، وكيف تضمحل، والصراع بين الخير والشر، وهذا ما لم يتحدث عنه كتاب قبل القرآن كما يذكر الشيخ رشيد رضا، وكان الأحرى بالمسلمين في كل عصر أن يدرسوا هذا العلم الذي نبههم القرآن إليه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقد مرت على المسلمين فترات إذا سمعوا فيها بعدو جلسوا في المساجد يقرؤون «صحيح البخاري» لدفع ذلك العدو، ولو أن قراءة البخاري للاستفادة من حديث رسول اللَّـه ﷺ في كيفية الاستعداد ومعرفة أسباب النصر والقوة، لكان هذا أخذًا بالأسباب، ولقد مرت على المسلمين فترات اعتمدوا فيها على قصص الكرامات ما وقع منها وما لم يقع، نعم، تقع الكرامة للمسلم المؤمن الصادق، ولكنها ليست هي الأصل في سنن اللَّـه، وإنما الأصل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

«إن أهل الباطل إذا قاموا ببعض هذه السنن مثل الاجتماع والتعاون على عمل ما، فيكون من أسباب نجاحهم، وما معهم من الباطل يكون مستندًا إلى هذا الحق، وهو فضيلة التعاون والثبات، وإن كان الباطل لا يدوم ولا يستمر زمنًا طويلاً»[1].

---

(١) انظر: تعليقات الشيخ رشيد رضا على غزوة أحد في تفسير المنار.

*** درس تربوي:**

ومن الدروس المستفادة من أحد أن اللَّـه سبحانه وتعالى لم يعنف أو يقرع المسلمين على خطئهم وعصيانهم لأوامر قائدهم رسول اللَّـه ﷺ، بل أزال عنهم آثار جراحات أُحُد وما أصابهم من الغم وآنسهم بأنهم الأعلون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال مخاطبًا الرسول ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ .... ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أي: كانوا يستحقون الملام ولكن رحم اللَّـه الجميع، وهذا من أحسن التربية؛ لأنه لو شدد عليهم زيادة على ما أصابهم، فلربما وهن العزم منهم، وأصيبوا بالإحباط الشديد واليأس.

يقول ابن عطية في «تفسيره»: «ومن كرم الخلق ألا يَهِنَ الإنسان في حربه وخصامه، ولا يلين إذا كان محقًّا، وأن يتقصى جميع قدرته، ولا يضرع ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى ..»[(١)].

*** النقد الذاتي:**

وفي أحد خاطب اللَّـه سبحانه وتعالى المؤمنين «بخلجات نفوسهم، وصارحهم بما كان فيها من نوازع القوة والضعف، والإقدام والإحجام فهي صور إنسانية مؤمنة»[(٢)]، قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾

---

(١) تفسير ابن عطية (٣/ ٣٣٥).

(٢) عبد العزيز كامل، دروس من أحد: ١١٣.

[آل عمران: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فهل يمارس المسلمون بين كل فينة وأخرى هذا النقد لأنفسهم، لماذا لم يتم النصر، ولماذا ينتقض البناء، ولماذا هذا الضعف، والبعد عن التمكين، وعن القيادة، لابد من هذه الأسئلة، والبحث عن جواب لها، ولابد من المصارحة وعدم الغمغمة، ومحاولة تسويغ وتعليق الأخطاء على الغير.

إن في المسلمين اليوم أمراضًا كثيرة، ولو أنهم صارحوا أنفسهم ما هي هذه الأمراض، فلربما تحسّنت أحوالهم قليلاً، وإن من أعظم هذه الأمراض الأثرة الفردية، والحزبية، وكثرة التفرق، فلِمَ لا يصيبهم ما أصاب غيرهم، ولم لا يحصون ذنوبهم وأخطاءهم، ولا ينتظرون أن يأتيهم التمكين على طبق من فضة.

*** في أعقاب أحد:**

إن من أصعب الأمور قيادة الأمم بعد الهزائم أو النكسات، ولم يكن ما وقع في أحد نصرًا حاسمًا للمشركين، إلا أن أعداء الإسلام من اليهود المجاورين أو الأعراب قد تجرؤوا على المسلمين وظنوا أنها فرصة مواتية لاقتلاعهم، ولكن تحرك القيادة الإسلامية كان سريعًا وقويًّا، مما أنسى الكفار أطماعهم وأحلامهم.

سمع رسول اللّـه ﷺ بتجمع للأعراب في نجد بقيادة طليحة الأسدي، فأرسل سرية بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد تضم مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فتفرق جمع طليحة تاركين أموالهم غنيمة للمسلمين، كما أرسل رسول اللّـه ﷺ عبد اللّـه بن أُنيس الجهني إلى خالد بن سفيان الهذلي

الذي كان يفكر في جمع الجموع ضد المسلمين، فقتله واستراح المسلمون منه، ومع خطورة الأوضاع، ورغم غدر الأعراب إلا أن باب الدعوة بقي مفتوحًا على مصراعيه، فليس المقصود قتل الناس، بل إدخالهم في حظيرة الدين، وقد استجاب رسول اللّـه ﷺ لدعوة بعض القبائل في إرسال دعاة يعلمونهم الدين، فأرسل عشرة من الصحابة إلى قبائل عضل والقارة، وأرسل سبعين إلى قبائل نجد، وغدر الأعراب بكلا الوفدين، ولم ينج إلا صحابيين من الذين ذهبوا قِبَل نجد، وكأن هذه التضحية لابد منها فهي ضريبة الدعوة إلى اللّـه، ولاشك أن الرسول ﷺ كان يعلم خطورة الأوضاع، ولكن الدعوات لا تقوى دون تضحيات، وفي هذه الفترة أجلى رسول اللّـه ﷺ بني النضير من اليهود جزاء خيانتهم وغدرهم.

* * *

(١٦)

على ماء المريسيع

كان تجمع بني المصطلق هو التجمع الأكبر للأعراب، استعدادًا لمهاجمة المدينة، وبنو المصطلق بطن من خزاعة، يسكنون قديدًا[١]، وعسفان[٢]، على الطريق من مكة إلى المدينة.

ورغم أن قبيلة خزاعة تميل بشكل عام إلى جانب المسلمين في صراعهم مع قريش[٣]، إلا أن بني المصطلق فضلوا إبقاء الأوضاع على ما هي عليه للاستفادة من تجارة قريش، وقد ظن زعيمهم الحارث بن أبي ضرار أن الفرصة مواتية بعد معركة أُحُد للإغارة على المسلمين.

ومن الطبيعي أن هؤلاء الأعراب لا يقدرون الموقف تقديرًا صحيحًا، ولا يعلمون أين تكمن قوة المسلمين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣].

وعندما سمع رسول اللَّـه ﷺ بهذا التجمع، أرسل الصحابي بريدة بن الحصيب الأسلمي لاستطلاع الخبر، وتأكد لرسول اللَّه ﷺ ما تتهيأ له بنو

---

(١) قُديد: واد من أودية الحجاز، يقطع الطريق من مكة إلى المدينة، على بعد ١٢٠ كيلاً. انظر: عاتق البلادي، معجم المعالم الجغرافية: ٢٤٩.

(٢) عُسفان: بلدة على ٨٠ كيلاً من مكة شمالاً، المصدر السابق: ٢٠٨.

(٣) يقول الإمام الزهري: «وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول اللَّـه ﷺ مسلمها ومشركها»، وكانت خزاعة ممن دخل في حلف عبد المطلب وبني هاشم قبل الإسلام. انظر: مرويات الحديبية: ١٢٢.

المصطلق، فخرج لليلتين خلتا من شعبان من السنة الخامسة للهجرة[1]، قاصدًا لهم، فأغار عليهم وهم غارّون، وأنعامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث.

هذه رواية ابن عمر رضي الله عنهما، كما تذكر في البخاري ومسلم[2]، وهذا يعني أن الغارة وقعت دون إنذار؛ ذلك لأن بني المصطلق قد بلغتهم الدعوة، ويعتبرون في حالة حرب مع المسلمين، ويجمعون الجموع لحربهم.

انتهت هذه الغزوة بنصر حاسم وسريع، ولكن المنافقين الذين حضروا هذه الغزوة[3] نغصوا على المسلمين هذا النصر، وأبت نفوسهم إلا أن تخرج أضغانها، ومن رحمة اللّـه بالمسلمين أن ينكشف المنافقون، فينقى الصف، وتظهر الأمور على جليتها لمن لم يتعرفها، وهكذا كان حديث عن المنافقين بعد أحد وبعد الخندق وبعد تبوك، أما في المريسيع فيروي جابر بن عبد اللّـه: كنا في غزاة فكسع[4] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار[5]، فقال الأنصاري: يا للأنصار،

---

(١) ذهب ابن إسحاق إلى أنها في السنة السادسة، ولكن موسى بن عقبة والواقدي وابن سعد وابن القيم والذهبي يرون أنها في السنة الخامسة، وهو الراجح واللّـه أعلم. انظر: الصحيحة (٢/ ٤٠٦).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٢٩)، ولا داعي لإنكار هذه الرواية كما فعل الشيخ محمد الغزالي / في (فقه السيرة): ١٠، بحجة أنه من غير المعقول أن يغير الرسول ﷺ على قوم دون إنذار، ودون عرض الدعوة، ولكن من الواضح أنهم كانوا يجمعون وأنهم كانوا في حالة حرب، والمباغتة في هذه الحالة مشروعة.

(٣) حبًّا في المغنم، لما يرون من أن النصر حليف للمسلمين.

(٤) كسع: أي ضربه برجله.

(٥) المهاجري: هو أجير لعمر واسمه جهجاه بن مسعود الغفاري، والأنصاري: سنان بن وبر الجهني، حليف بني عوف من الخزرج.

وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول اللَّـه ﷺ فقال: «دعوها فإنها منتنة»[1]، وسمع زعيم النفاق عبد اللَّـه بن أبي بن سلول بما جرى بين المهاجرين والأنصار فقال: أَوَقَد فعلوها؟ ويعني هذا المنافق أننا آوينا المهاجرين حتى كاثرونا، وأصبحوا ينافسوننا أيضًا.

قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: كنت في غزاة[2]، فسمعت عبد اللَّـه بن أُبيّ يقول: لا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي[3] - أو لعمر - فذكره للنبي، فدعاني، فحدثته، فأرسل رسول اللَّـه ﷺ إلى عبد اللَّـه بن أُبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول اللَّـه ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول اللَّـه ﷺ ومقتك، فأنزل اللَّـه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ..... ﴾ [المنافقون: ١]، فبعث إليّ رسول اللَّـه ﷺ فقال: «إن اللَّـه قد صدقك يا زيد»[4]، وطلب عمر رضي الله عنه من رسول اللَّـه ﷺ أن يقتل هذا المنافق، فقال له رسول اللَّـه ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[5]. وحتى لا يخوض الناس في هذا الحديث، وحتى ينسوه، أمر الرسول ﷺ بالرحيل من فورهم، فمشوا نهارهم، ثم ليلتهم، ثم ضحى اليوم الثاني حتى أخذ التعب منهم مأخذه.

---

(١) الألباني: صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٢٠).

(٢) صرحت الروايات بأنها غزوة بني المصطلق. انظر: الصحيحة (٢/ ٤٠٨).

(٣) يعني سعد بن عبادة، وهو ليس عمه نسبًا، ولكنه زعيم الخزرج.

(٤) إبراهيم قربي: مرويات غزوة بني المصطلق: ١٧٤، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، دون تاريخ.

(٥) المصدر السابق: ١٧٦.

*** الدروس:**

١- كان العرب (وخاصة عرب الشمال) أشد الناس ارتباطًا بالقبيلة فهي وحدتهم الاجتماعية، وهي كهفهم التي يأوون إليها، وليس لهم دولة ولا حكومة، وكانت العصبية القبلية قد استفحلت فيهم، وتمادوا بها حتى أهلكتهم في حروب طاحنة تافهة.

جاء الإسلام ونقلهم إلى مفهوم (الأمة) وصهرهم في بوتقتها، ورابطة هذه الأمة والمحور الذي تدور عليه هو الدين، فالناس إخوة في الإيمان، وبقيت القبيلة كشأن من الشؤون الاجتماعية التي لا تتعارض مع مفهوم (الأمة)، ولكن قضية خطيرة كالعصبية القبلية أو العصبية النسبية لا تذهب بسرعة، ولابد أن تظهر بين الفينة والأخرى، حتى يقضي عليها الإسلام قضاء تامًّا، وعندما نادى المهاجري: يا للمهاجرين، والأنصاري: يا للأنصار، لم تتطور الحادثة ولم تتسع، ولم يستجب لها أحد، ولو تركت دون معالجة فربما تتفاقم وتؤدي إلى نتائج غير حميدة، وسنرى في التعليق على الحادثة التي أثارها المنافقون (حادثة الإفك) أن سعد بن معاذ حين قال للرسول ﷺ: «إذا كان الذي تولى كبرها من الأوس قتلناه، وإن كان من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك، فغضب سعد بن عبادة سيد الخزرج وكاد الحيّان أن يقتتلا، لولا أن هدأهم رسول اللّـه ﷺ.

وهذا الذي حدث بين الأوس والخزرج كان هفوة عابرة، ولكن جيل الصحابة كان أرفع من هذه العصبيات، ولكن العصبيات التي وصفها رسول اللّـه ﷺ بأنها منتنة عادت بعد الخلفاء الراشدين، ومازالت تتفاقم وتنبعث حتى كان لها الآثار المدمرة في إضعاف الدولة الإسلامية وخاصة في الأندلس. وفي العصر الحديث جاءت بدعة القوميات ليست كعصبية منتنة فحسب، بل كبديل عن الدين كله، بديل عن فكرة الأمة الواحدة ذات العقيدة الواحدة، وكانت

آثارها مدمرة أيضًا، وفشلت فشلاً ذريعًا في الأقاليم العربية التي تبنتها فحاربت الدين ولم تقم الدنيا، وأصبح ما يسمى بالوطن العربي ممزقًا أشتاتًا ضعيفًا مستضعفًا، وازداد الأمر سوءًا حين استمرت هذه العصبية فتحولت إلى إقليمية ضيقة وذرائعية وطنية حاقدة، وعاش المسلمون ضمن هذه الأوطان في نكد وضيق عيش.

٢- إن أمر الرحيل الذي أصدره محمد ﷺ حتى تعب الجيش كله ما يدل على أن الشعوب والأمم إذا لم تنشغل بالجد والمفيد فإنها تنشغل بالسفاسف من الأمور. ولذلك كانت الأمة الإسلامية أمة جادّة فهي ما بين علم وجهاد وإقامة دنيا تساعد الأهداف الكبرى، وهذا أمر معروف عند الجيوش وفي معاهد العلم، فإذا لم تشغل الجنود والطلبة شغلوك، وهذه الحادثة تدل على أن الرسول ﷺ في الذروة العليا من القيادة الإدارية.

٣- مع تأكد الرسول ﷺ أن عبد اللّـه بن أبي بن سلول هو الذي قال مقالته، ولكنه لم يقتله ولم يهيجه، وعلل ذلك بأن لا يقال أن محمدًا يقتل أصحابه، وهذه من أنفع السياسات، فإن الإسلام ما يزال محارَبًا متربَصًا به من الأعراب الذين حول المدينة، فليس من الحكمة أن يفتح المسلمون جبهة داخلية، وزعيم النفاق عبد اللّـه بن أبي ومن يلتف حوله يظهرون الإسلام وبعض الناس لا يعلمون أن هؤلاء منافقون، ثم إن إهمال الرسول ﷺ له جعل قومه يعنفونه إذا تكلم كلامًا ينبئ عن خبيئته، فأصبح مهانًا في قومه بعد أن كان معظمًا، ولو قتله رسول اللّـه ﷺ قبل أن يعلم قومه ضغينة نفسه لحميت له أنوف.

لا يفقه بعض الشباب المسلم المتحمس هذه السياسة، فتجدهم يقاتلون و(يقتلون) بعض المسلمين الذي ليسوا منافقين ولكن ضعفت نفوسهم فلم

يرتقوا إلى التميز الواضح، وضعفت نفوسهم فتأولوا تأويلات ليست في محلها، وحتى الذين وقع منهم ولاء يخدش أصل العقيدة، ليس من المصلحة قتلهم كما امتنع الرسول ﷺ عن قتل عبد اللَّـه بن أُبي، يفعلون كل هذا بحجج واهية وجهل كبير، وسياسة ردية، ولا يفرقون بين عدو شديد العداوة وبين مخالف مسلم.

٤- رجل العقيدة:

يمثل عبد اللَّـه بن عبد اللَّـه بن أبي بن سلول رجل العقيدة التي لا يشوبها شائبة من بقايا جاهلية أو عصبية، فعندما سمع أن الرسول ﷺ يريد قتل والده عبد اللَّـه بن أبي خشي أن يكون في نفسه شيء على قاتل والده، وهذا يعني أن تعود إليه نعرة من نعرات الجاهلية، فاستأذن رسول اللَّـه ﷺ في أن يتولى هو قتل والده، فلم يأذن الرسول ﷺ له، بل قال: «ولكن برّ أباك وأحسن صحبته»[(١)]، ومع ذلك لم يترك عبد اللَّـه أباه حتى أعلمه أنه هو الذليل وأن رسول اللَّـه ﷺ هو العزيز، ومنع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له الرسول ﷺ[(٢)].

إن النصر يتنزل على المسلمين حين تتمحض وجهتهم للَّه سبحانه وتعالى، ويتركون أوضار الجاهلية كلها وراء ظهورهم، فلا يتعصب الرجل لأهل قرابته أو مدينته أو قريته إذا كانوا على الباطل.

***

(١) رجاله رجال الصحيح، قاله في الصحيحة (٢/ ٤١٠).

(٢) قال الترمذي: حسن صحيح، انظر: الصحيحة (٢/ ٤١٠).

حديث الإفك

حادثة أخرى وقعت في طريق العودة، أثارها المنافقون أيضًا، وهي أخطر من الحادثة الأولى؛ لأنها تتعلق بشخص الرسول ﷺ وأهله، مما يدل على إيغال المنافقين في الدسيسة وشدة حقدهم والتواء نفوسهم، وخلاصة الحادثة، أن عائشة كانت مع الرسول ﷺ في هذه الغزاة وكان رسول اللَّـه ﷺ يقرع بين نسائه إذا خرج للغزو، وبعد استراحة للجيش وقد قرب من المدينة، أذن الرسول ﷺ بالاستعداد للمسير، وكانت عائشة رضي اللَّـه عنها قد ذهبت بعيدًا لحاجتها، وعندما رجعت تبين لها أنها فقدت عِقدها، فرجعت تبحث عنه، وفي غيابها جاء من يرحلها، وحملوا الهودج وهم يظنون أنها بداخله، وكانت شابة صغيرة السن، ولم ينتبهوا لخفة الهودج، فلما رجعت وجدت القوم قد رحلوا، فجلست تنتظر لعلهم يفقدونها، وكان في ساقة القوم الصحابي صفوان بن المعطل، وكان من عادته التأخر في نومه، فرأى عائشة وعرفها؛ لأنه كان يراها قبل الحجاب، فاسترجع ولم يكلمها كلمة واحدة، وقرب لها الناقة فركبت، وانطلق يقودها ليلحق بالجيش، فلما وصلا، عنّت للخبيث عبد اللَّـه بن أبي إطلاق إشاعة السوء حول السيدة عائشة رضي اللَّـه عنها وصفوان بن المعطل رضي الله عنه، وتكلم الناس في ذلك، ممن هم على شاكلته، أو ممن تأثر بذلك من المسلمين، وخاضوا في الإفك، وتأذى رسول اللَّـه ﷺ من هذه القالة، كيف لا وهي طعن في زوجه، وما كان قصد الخبيث عبد اللَّـه بن أبي إلا الطعن في رسول اللَّـه ﷺ، وكأنه يقول للمسلمين: هذا نبيكم وهذا قائدكم، وهذه زوجته، واشتكى رسول اللَّـه ﷺ إلى المسلمين من هذه القالة، وأنه لا يعلم عن عائشة

إلا خيرًا، ولا يعلم عن صفوان إلا خيرًا، وتأخر الوحي للفصل في هذه القضية الخطيرة، وذلك لحكم كثيرة، منها استشراف الوحي وتعلق الرجاء باللَّـه سبحانه وتعالى، ومنها أن لو كان هذا القرآن من عند محمد ﷺ لتكلم في هذا الموضوع الذي يزعجه جدًّا، ومنها نزول براءة عائشة من السماء، ونزل الوحي بعد شهر من المعاناة يبرئ السيدة عائشة ويتوعد الذي تولى كبر هذه التهمة، بالعذاب الشديد ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ ... ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٢ – ١٥].

إن التشكيك في خصوصيات القائد أو الداعية أو العالم المسلم واتهامه في أهله لهو دأب أهل النفاق والزندقة، ودأب أهل الفسق الذين يكرهون العفة والطهر، وقد سمعنا كثيرًا في العصر الحديث من أصحاب الاتجاهات المنحرفة مقالاتهم وإشاعاتهم التي يتهمون فيها العلماء والدعاة، يقولون: انظروا إلى ابنة الشيخ الفلاني تخرج دون حجاب، وقد رأيناها أمس في نادي السباحة، ... إلخ، هذا هراء، والمضحك أنهم اتهموا أحد كبار الدعاة في بناته وهو لم يتزوج قط، ولكن (إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

إن المعركة الفكرية التي يديرها أعداء الإسلام أخبث وأشد لؤمًا من المعارك العسكرية والاقتصادية، معركة استنفرت فيها الأقلام، وحشدت لها الكتب والصحف والمجلات، ومئات المرتزقة الحاقدين، وإن أشد ما يصاب به المسلمون أن يتسلل المنافقون إلى صفوفهم، فيعيثون تخريبًا وفسادًا وأصحاب الغفلة يسمعون لهم، وتؤثر فيهم مكايدهم، وفي عصر النبوة كانت الآيات تتنزل لتكشف المخبوء من صدور المنافقين، وتعطي المسلمين صورة واضحة قوية، وكأنها تدل عليهم بأعيانهم، وسميت سورة براءة (بالفاضحة)؛ لأنّها فضحت

أمر المنافقين وذلك لشدة خطورتهم وكثر ةأحابيلهم، وقد وعى المسلمون تمامًا هذه الدروس فلم يتمكن منافق من الوصول إلى مركز القرار، أو يكون شخصية نافذة، فقد استبانت سبيل المجرمين، وعندما يضعف هذا النور عند أي جيل من الأجيال فإن النفاق سيكون له صولة وجولة، وسوف يسرقون الجهود الكبيرة، ويسخرونها كلها لأهوائهم ونفوسهم المريضة.

٢- في قصة الإفك تأخر الوحي عن رسول اللَّـه ﷺ شهرًا، ثم نزل ببراءة عائشة رضي اللَّـه عنها، وفي ذلك حكم كثيرة تكلم عنها ابن القيم / فقال: «جعل اللَّـه هذه القصة امتحانًا وابتلاء لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا ويضع آخرين، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ولتتم العبودية المرادة من الصِّدِّيقَة وأبويها وتتم نعمة اللَّـه عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول الفرج والنصرة على يد أحد من الخلق، ومن الحكمة أن استشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه اللَّـه إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فورد عليهم ورود الغيث على أرض أحوج ما تكون إليه، وأيضًا أن اللَّـه سبحانه أحب أن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه والرد على أعدائه ...»[1].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦١).

(١٧)

وهزم الأحزاب وحده

في السنة الخامسة من الهجرة، سعى زعماء بني النضير لإقامة تحالف كبير يستطيع مجابهة المسلمين، وقد نجحوا في ذلك، فقام تحالف من يهود بني النضير وقريش وحلفائها، وأعراب غطفان وكان هذا أكبر تجمع يتعاقد عليه أعداء الإسلام منذ بداية الصراع بين المسلمين وأعدائهم في الجزيرة العربية، وكان أيضًا آخر تجمع لهم، فلم يقدروا على مثله في حياة الرسول ﷺ، بل انقلب الحال بعدها وتحول المسلمون إلى خطة الهجوم، كما قال ﷺ بعد الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[1]، إنها مرحلة فاصلة من مراحل الكفاح والجهاد بعد أن تكسرت أمواج الباطل. وتطهرت المدينة من قبائل يهود، وانتقل المسلمون إلى أخذ زمام المبادرة.

استطاع تحالف الأحزاب تجميع حوالي عشرة آلاف مقاتل، جاؤوا بخيلهم ورجلهم، وعسكروا شمالي المدينة. سمع رسول اللّـه ﷺ بمسيرهم فاستشار الصحابة – كعادته في مثل هذه الأمور الخطيرة – فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق يمتد بين طرفي الحرتين من جهة الشمال، وهكذا تكون المدينة محصنة من جهاتها الأربع، وقد تم حفر هذا الخندق خلال مدة قصيرة وشارك فيه رسول اللّـه ﷺ بنفسه مشجعًا للصحابة على بذل أقصى طاقاتهم.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٤٠٥)، حديث رقم: ٤١١٠.

فوجئ العدو بهذه المكيدة التي لا تعرفها العرب، واتخذ المسلمون خطة الدفاع من وراء الخندق، واستمر الحصار أربعة وعشرين يومًا، عانى المسلمون فيه من البرد والسهر والجوع، وكانوا كما وصفهم اللَّـه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١]، ومما زاد الأمر شدة، تخاذل المنافقين، وقد وصفت حالهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

وبعد أن نقض بنو قريظة عهدهم مع المسلمين وانضموا إلى تحالف الأحزاب صار المسلمون بين عدوين ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ .. ﴾ [الأحزاب: ١٠]، ولم تنقطع محاولات المشركين لاقتحام الخندق، حتى أن الرسول ﷺ والمسلمين معه لم يتمكنوا في أحد الأيام من صلاة العصر، فما صلوها إلا بعد غروب الشمس. ورغم هذه المعاناة الشديدة فقد ثبت المسلمون ثبوت الجبال الرواسي، ورأى رسول اللَّـه ﷺ ما يعانيه أصحابه فحاول التخفيف عنهم بمصالحة أعراب غطفان وإعطائهم ثلث ثمار المدينة على أن يتركوا التحالف، واستشار في ذلك زعماء المدينة (سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة) فكان رأيهما عدم إعطاء هؤلاء شيئًا، فأمضى لهما رأيهما، ولم يعط الأعراب شيئًا، وكان هذا مما أدخل الرعب في قلوبهم.

علم اللَّـه ما في قلوب المؤمنين من الثبات العزيمة، فأنزل نصره عليهم، وأرسل ريحًا شديدة ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وكان العدو قد مَلَّ الحصار، وتهيأ للرحيل، وانسحب التحالف، وكفى اللَّـه المؤمنين القتال، وأعز اللَّـه جنده، وهزم الأحزاب وحده. وإتمامًا لهذا النصر العظيم نزل جبريل عليه السلام وطلب من الرسول ﷺ أن ينهض لجهاد بني قريظة الذين نقضوا العهد

والمسلمون في أشد الضيق، فحاصرهم رسول اللَّـه ﷺ حتى نزلوا من صياصيهم على أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، لظنهم أن سعدًا سيخفف عنهم العقوبة، بسبب حلفهم القديم مع الأوس، ولكن سعدًا رضي الله عنه لم تأخذه في اللَّـه لومة لائم، فحكم: بقتل الرجال، وسبي النساء والأولاد، وأخذ الأموال، وقال رسول اللَّـه ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم اللَّـه من فوق سبعة أرقعة»، وهكذا قضي على آخر معقل من معاقل يهود في المدينة، واستراح المسلمون منهم، وعلى نفسها جنت براقش.

*** الدروس:**

١- إن تحالف اليهود مع المشركين الوثنيين قد يبدو غريبًا في ظاهر الأمر؛ لأن اليهود أهل كتاب، ولبادئ الرأي فإن المسلمين أقرب لهم من المشركين، ولكن الواقع والحقيقة أن ملة الكفر واحدة، وأن جميعهم حرب على الإسلام؛ لأن الخطر المشترك من ظهور الدين الحق يشملهم جميعًا، فمصالح أرباب الدين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ومصالح أرباب الدنيا يلتقيان في استعباد الناس وتسخيرهم لأهوائهم، وهم يعلمون أن الإسلام يحارب هذا الاستعباد، وأنه تحرير للإنسان من العبودية لغير اللَّـه، وقد سُئل اليهود عن الوثنية والإسلام فاعتبروا أن الوثنية أقرب للهدى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء: ٥١]، «وهم يقولونها اليوم وغدًا، إنهم يشوهون بوسائل الدعاية التي بأيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض، ويعينون عليها أهل الباطل»[(١)].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (٢/ ٦٨١).

ونحن نرى في هذا العصر كيف أن دول أوربا النصرانية والتي تؤمن بالديموقراطية وحرية الإنسان في بلادها، تؤيد أعتى الحكومات الاستبدادية في الوطن الإسلامي، لماذا؟ لأن هذه الحكومات تحارب الإسلام، ونرى النصارى واليهود من أهل الغرب يتسامحون مع كل الملل مثل البوذية والهندوسية والسيخ، ولا يتسامحون مع الإسلام. وسيتكرر هذا التحالف مع الوثنية خلال التاريخ الإسلامي، ومن ذلك محاولة أوربا إقامة تحالف مع المغول الوثنيين للقضاء على الدول الإسلامية[1].

وعندما جاء المغول للمرة الثاني وزحفوا إلى بلاد الشام فرح بهم أعداء اللَّـه، ويقارن ابن تيمية بين غزوة الخندق وبين هذا التحالف فيقول: «وفي هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مُغل (مغول) وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة، ونحوهم من أجناس المرتدة ومن نصارى الأرمن وغيرهم ..»[2]. ويقول أيضًا: «وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار، وقال بعض الخاصة[3]: ما بقيت أرض الشام تسكن، بل ننتقل عنها، إما إلى الحجاز واليمن، وإما إلى مصر، بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء»[4]. وهذا الكلام يشبه قول المنافقين في الخندق: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وقد تحزب الغرب في هذا العصر

---

(١) انظر: التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي/ ٤٠ للمؤلف، تعليقًا على المشروع السابع لتقسيم الدولة العثمانية.

(٢) الفتاوى (٢٨/ ٤٤٤).

(٣) ربما من أهل الترف والدعة.

(٤) الفتاوى (٢٨/ ٤٥٠).

بحكوماته وإعلامه وكُتّابه على المسلمين بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم في هذا يخوفون الناس من (الأصولية) و(التعصب) و(الإرهاب) إلى آخر هذه المصطلحات التي اخترعوها، ولكن إذا صبر المسلمون، وصحت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فإنّ اللّـه يرد كيد عدوهم.

٢- أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق، وكان هذا نتيجة استشارة الرسول ﷺ للمسلمين في مثل هذه الأمور من السياسات العامة في السلم والحرب، والاستشارة هي التي تستخرج أفضل الآراء، وتشحذ القرائح، وتشجع على التفكير السليم، ويأنس الجنود بقائدهم، إنّ استجابة الرسول ﷺ لرأي سلمان، وحفر الخندق على غير ما عهد عند العرب، يعد تجديدًا في الوسائل العسكرية، وتجديدًا في كل شيء من أمور الدنيا التي لا تتعارض مع مقاصد الشريعة، وتجديدًا في الأساليب الإدارية، ولم يقل رسول اللّـه ﷺ: هذه أمور لا نعرفها ولا ندري عنها أو لا تعرفها العرب.

إن الجمود على فكرة معينة ووسيلة واحدة، لا أقول يضعف العمل، بل هو قاتل للعمل، وجدير بالمسلم أن يملك هذه العقلية التي تستجيب للمستجدات وما يطرأ على الساحة، وتكون عنده المرونة لأن يأخذ بأحسن ما يتقدم به أهل العقول الراجحة.

٣- وفي هذه الغزوة استشار الرسول ﷺ السَعْدَين (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) في مسألة ثلث ثمار المدينة، والتبرع بها للأعراب مقابل انسحابهم من التحالف ورجوعهم عن القتال، وهذه استشارة خاصة في موضوع هم أولى الناس به؛ لأنّها تتعلق بأرضهم وزراعتهم، وهكذا جمع الرسول ﷺ بين الشورى العامة والاستشارة الخاصة، وكان جواب (السَّعْدَيْن) رائعًا حازمًا: «إن كانت القضية ليست وحيًا من اللّـه، وإنما رأي رآه رسول اللّـه ﷺ فواللّـه لا نعطيهم

إلا السيف»، وقد وافقهما رسول اللَّـه ﷺ وألغى هذه الصفقة. وإن هذا الصمود وهذا المضاء يجعل الأعداء يفكرون ألف مرة ويتساءلون: ما بال هؤلاء؟ من أين لهم هذه القوة؟ وموقف سعد بن معاذ هنا كموقفه بعد الخندق عندما ارتضته بنو قريظة ليكون الحَكَم فيهم بعد استسلامهم لرسول اللَّـه ﷺ فلم يَفْشل، ولم تتسرب إلى قلبه الرحمة بأعداء اللَّـه، ولم تأخذه في اللَّـه لومة لائم.

٤- ذكر أصحاب السير أن نُعيم بن مسعود الغطفاني أسلم في أيام هذه الغزوة، ولم يعلم قومه ولا قريش بإسلامه، وأن الرسول ﷺ طلب منه أن يخذل عن المسلمين، فقام يزرع الشك بين أطراف التحالف (قريظة، قريش، غطفان)، وهذه الرواية وإن لم تثبت حديثيًّا[1]، ولكنها مشهورة ولا يمتنع وقوعها، فالحرب خدعة.

ومنها نعلم كيف يستثمر القائد كل الإمكانات والطاقات، وكيف يسخرها لمصلحة الإسلام، كما فعل ﷺ عندما أعطى سيفه في أحد لأبي دجانة، وإنني أعتقد أن هذه الخاصية من خصائص القائد قل أن توجد اليوم بين القيادات الإسلامية، بل إنني أعتقد أن من أسباب ضعف المسلمين هذا الفشل الإداري الواضح، وعدم اكتشاف الطاقات، وإذا اكتشفت لا تأخذ مكانها المناسب، بل ما تزال المحاباة للأقارب والأصدقاء، وأحيانًا لا تبرز هذه الطاقات ولا تشجع حتى لا يكون لها موقعٌ قريبٌ من القائد الذي يفضل أن يكون مَنْ حوله أصفارًا وحتى يبقى وحده ظاهرًا بارزًا.

٥- وكذلك كان موقف سعد بن معاذ رضي الله عنه مع بني قريظة، لم يحاب حلفاءه بالأمس، ولم يستمع لطلب ورجاء قومه (الأوس) بأن يرفق بهم؛ لأنه

---

(١) انظر: الصحيحة (٢/ ٤٣٠).

كان يدرك خطورة ما قاموا به، وأنه لا يصلح لهم إلا هذا الدواء، وأن التراخي في مثل هذه المواقف لا يصح أبدًا، وهو من أفن الرأي.

إن إظهار اللين دائمًا ليقال إن المسلمين رحماء مسالمين، إنما هو الفشل والضعف، وربما تفعل كلمة حازمة جازمة ما لا تفعله السيوف، وربما ترعب العدو وتضع له حدًّا، ونحن نرى بعض المسلمين اليوم يطلقون التصريحات اللينة فلا تزيدهم إلا ضعفًا، ولا تزيد أعداء الإسلام إلا صلفًا وغرورًا، واستمرارًا في الإيذاء.

٦- أيد اللَّـه المسلمين بجنود لم يروها، وهبت رياح عاصفة على معكسر المشركين، وقد طال الحصار ومَلُّوا منه، وإذا أضفنا إلى ذلك فساد نيات أصحاب الأحزاب، كل هذا أنهى المعركة لصالح المسلمين، ورَدَّ اللَّـه كيدهم لم ينالوا خيرًا، ونصر اللَّـه عبده، وهزم الأحزاب وحده، ولكن هذا النصر للمسلمين لم يأت إلا بعد أن اطلع اللَّـه على قلوبهم وعزائمهم وثباتهم وصبرهم، ولم يأت نصرًا سهلاً هيِّنًا، ويفهم من هذا أن الثبات والصبر من أعظم أسباب الظفر، وأن نية المسلم وتوجهه الصالح له دور كبير أيضًا.

* * *

(١٨)

درس في السياسة

صدق رسول اللَّـه ﷺ عندما قال بعد غزوة الخندق «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، إنها انتهاء مرحلة وبداية مرحلة جديدة، فقد وصل المسلمون إلى درجة من القوة والثقة بأنفسهم أن يتهيؤوا لأداء شعائر العمرة والطواف بالبيت العتيق معظمين لشعائر اللَّـه.

استنفر رسول اللَّـه ﷺ المسلمين في المدينة والأعراب من حولها لأداء مناسك العمرة، وكان ﷺ يتوقع من قريش الصد والأذى فخرج المسلمون بسلاحهم ، فإن مجرد عودته ﷺ إلى مكة معتمرًا، ومعه هذا العدد الكبير من المسلمين يعد نصرًا سياسيًّا.

أدركت قريش هذا المغزى، فأصرت على صد المسلمين عن البيت العتيق؛ لأن آلتها الدعائية كانت تقول للعرب: إن محمدًا ومن معه لا يعظمون البيت، ويقاتلون أهله وحماته (قريش) وعندما يقدم الرسول ﷺ والمسلمون معه معظمين للبيت فهذا رد على دعاية قريش.

خرج رسول اللَّـه ﷺ من المدينة في مستهل ذي القعدة من السنة السادسة ومعه المهاجرون والأنصار وغيرهم من المسلمين، وكانوا حوالي (١٤٠٠)، ولم يخرج الأعراب لظنهم أن المسلمين سيهلكون في هذا الخروج، ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١].

أحرم رسول اللَّـه ﷺ والمسلمون معه بعمرة من ذي الحليفة، وقلد رسول اللَّـه ﷺ الهَدْيَ وأشعره[1]، وبعث بُسْرَ بن سفيان[2] الخزاعي عينًا له يخبره خبر قريش، وليكون الرسول ﷺ على اطلاع دائم على أخبار عدوه، حتى إذا وصل رسول اللَّـه ﷺ إلى عُسفان أو غدير الأشطاط، أتاه عينه بسر بن سفيان بخبر قريش، وأنها سمعت بمسيره وجمعت له الجموع لصده عن البيت.

استشار رسول اللَّـه ﷺ أصحابه في أن يغير على ديار القبائل التي ساعدت قريشًا، واجتمعوا معها وقال: «أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان اللَّـه عز وجل قد قطع عينًا عن المشركين، وإلا تركناهم محروبين»، فقال أبو بكر: «يا رسول اللَّـه خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه»، قال: «امضوا على اسم اللَّـه»[3]، ثم إن رسول اللَّـه ﷺ غير طريقه متجنبًا الصدام مع طليعة المشركين بقيادة خالد بن الوليد، وسلك طريقًا وعرًا حتى إذا قرب من الحديبية بركت ناقته، فقال المسلمون: خلأت القصواء[4]، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة[5] يعظمون فيها حرمات

---

(١) إشعار البُدن: أن يشق أحد جنبي السنام حتى يسيل دمها، ويجعل ذلك علامة تعرف أنها هدي.

(٢) ذكر ابن القيم أنه كان كافرًا، والأصح أنه أسلم قبل الحديبية بقليل، ولم تعلم قريش بإسلامه.

(٣) فتح الباري (٧/ ٤٥٣)، حديث (٤١٧٨) باب المغازي.

(٤) أي بركت فلم تبرح، مثل الحران عند الدواب الأخرى.

(٥) الخطة: الأمر والحال والخطب.

اللَّـه إلا أعطيتهم إياها»[1]، ثم نزل رسول اللَّـه ﷺ بأقصى الحديبية[2] على بئر قليلة الماء.

كان رسول اللَّـه ﷺ حريصًا على استبقاء قريشٍ كي تستفيد الدعوة منهم، وقريش أكثر العرب فصاحة وخبرة ومكانة[3]، ولذلك أوضح لقريش أنه لم يأت لحرب وإنما جاء لزيارة البيت الحرام، ولكن قريشًا أصرت على منعه.

لم ييأس رسول اللَّـه ﷺ فقرر إرسال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبين لهم مقصد المسلمين، ولكن عمر اعتذر بأن قريشًا تعلم عداوته لها، ولا يستطيع بنو عدي حمايته، وأشار بإرسال عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أوفد رسول اللَّـه ﷺ عثمان بن عفان، فدخل مكة وكلّم زعماءها، ولم يعتمر أو يطف بالبيت، وقد تأخر عثمان في العودة، وبلغ رسول اللَّـه ﷺ أنه قد قُتِل، فدعا إلى البيعة، فثار المسلمون إلى رسول اللَّـه ﷺ فبايعوه تحت الشجرة على ألا يفروا، وقد أثنى اللَّـه سبحانه وتعالى على هذه البيعة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وأثنى رسول اللَّـه ﷺ فقال: «أنتم خير أهل الأرض»، وعن جابر عن رسول اللَّـه ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»[4].

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٢٩).

(٢) الحديبية: بالتخفيف والتشديد، اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتعرف الآن بـ(الشميسي)، وفيها حدائق الحديبية، ومسجد الرضوان. انظر: السيرة الصحيحة (٢/ ٤٣٤).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٣٨).

(٤) صحيح أبي داود (٣/ ٨٨٠).

ودخل في هذه المفاوضات طرف محايد، وبدون طلب من رسول اللَّـه ﷺ وهو بديل بن ورقاء الخزاعي، فأوضح له الرسول ﷺ موقفه، وأنّه ما جاء إلا لزيارة البيت ولم يأت لحرب، ولكن إن أصرت قريش على القتال فسيقاتلهم، وقام بديل بتبليغ هذه الرسالة إلى قريش، التي بدت وكأنها لا تثق بأي خزاعي ولو كان مشركًا، فقالت له: «وإن كان إنما جاء لذلك فلا واللَّـه لا يدخلها أبدًا علينا، ولا تتحدث بذلك العرب»[1].

ثم بدا واضحًا لقريش أنها تخسر المعركة السياسية مع المسلمين، فإن زعماء مثل بديل بن ورقاء باتوا مقتنعين بأن محمدًا إنما جاء لتعظيم البيت.

لقد تحول الأمر، وأصبحت قريش هي التي ترسل الرسل للتفاوض، وأهم أمر لديها هو رجوع المسلمين عامهم هذا، فأرسلت عروة بن مسعود الثقفي، فلقي الرسول ﷺ وسمع منه، وقال لقريش: أي قوم، واللَّـه لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، واللَّـه إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا[2]. ثم أرسلت قريش الحليس بن علقمة الكناني، فلما رآه رسول اللَّـه ﷺ قال: هذا من قوم يعظمون البُدن[3]، فابعثوها أمامه، واستقبله الصحابة ملبين، فلما شاهد ذلك قال: سبحان اللَّـه، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت[4]، فقالت له قريش: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك. ثم أرسلت قريش مكرز بن حفص، وأعقبته بسهيل بن عمرو، فلما رآه رسول اللَّـه ﷺ قال: «قد سُهّل لكم من أمركم»، وقد تم الاتفاق فعلاً بين الرسول ﷺ وبين سهيل ممثلاً لقريش على الأمور التالية:

---

(١) الصحيحة (٢/ ٤٣٩).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٨٩)، كتاب الشروط.

(٣) أي: يعظمون شعائر اللَّـه ويتألهون.

(٤) فتح الباري (٥/ ٣٩٠)، وانظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٣).

١- يرجع المسلمون عامهم هذا ولا يدخلون مكة، وأنه إذا كان العام القابل يدخلها المسلمون ثلاثة أيام.

٢- توضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٣- لا يأتي المسلمين رجل من قريش - وإن كان مسلمًا - إلا ردّه المسلمون إليهم، ومن أتى قريشًا من المسلمين لا يردوه إليهم.

٤- من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه.

لم يعجب هذا الصلح بعض المسلمين الذين رأوا في شروطه إجحافًا بهم، وممن أظهر الغضب في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سمع من الرسول ﷺ أن اللّـه ناصر هذه الدعوة.

بعدانتهاء كتابة هذا الصلح أمر الرسول ﷺ المسلمين بأن يتحللوا من إحرامهم فيقوموا للنحر والحلق، فلم يقم منهم أحد، وذلك لتأثرهم بشروط هذا الصلح، فدخل ﷺ مغضبًا على السيدة أم سلمة رضي اللّـه عنها، فأشارت عليه بأن يخرج ولا يكلم أحدًا منهم، وينحر ويحلق، ففعل ﷺ ما أشارت به فبادروا سراعًا للتحلل من إحرامهم للعمرة.

- ١ -

قال ابن القيم معلقًا على أهمية الحديبية والحكم الكثيرة التي تضمنتها: «وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا اللّـه الذي أحكم أسبابها»[1]، ويقول أبو عمر بن عبد البر: «ليس في غزوات الرسول ﷺ ما يعدل بدرًا أو يقرب منها إلا

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠٩).

غزوة الحديبية»[1]. ولقد أصاب هذان العالمان الجليلان في الإشارة لأهمية الحديبية فقد سماها اللَّـه سبحانه وتعالى (فتحًا مبينًا)، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[2].

وإذا كان الصحابة رضوان اللَّـه عليهم قد تعلموا دروس العسكرية وفن إدارة المعارك في بدر وأحد والخندق، فإنهم تلقوا هنا درسًا في السياسة والإعلام، والسياسة هي النظر السديد، ومعرفة الواقع، وطبائع الناس، واستشفاف المستقبل، والتي تقوم على القرار المناسب في الوقت المناسب، وعلى تحمل المكاره الآنية في سبيل ما يتوقع من المكاسب الآجلة، والتي تقوم على مواقف مستنبطة من الشرع وضمن ضوابطه، ومبنية على علم وتجربة، وليست السياسة التي يقرنها الناس بالكذب والدجل، والتصريحات الطنانة أو المتناقضة المبنية على الجهل والغوغائية والهذر والفوضى، يقول الإمام الطرطوشي: «ونحن وإن كنا نرغب عن الدهاء والمكر فإنا نرغب في الحيلة، ونوصي بها، والاتساع في الحيلة مما تواصى به العقلاء قديمًا وحديثًا، وأضعف الحيلة أنفع من كثير الشدة»[3].

السياسة الحقيقية هي التي تبتعد عن البطولات الفارغة التي لا تعمل شيئًا بحجة أنه مستحيل[4].

---

(١) مرويات الحديبية: ٢٢٧.

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٠٥)، كتاب المغازي حديث رقم: ٤١٥٠.

(٣) سراج الملوك: ٢١٧، تحقيق البياتي.

(٤) كما ورد في قصة رمزية أن رجلاً ذهب هو وزملاؤه إلى الغابة للاحتطاب، فكُلٌّ رجع بحزمة حطب إلا هو، وتفقده الزملاء فوجدوه يلف حبله حول مئات أو آلاف الأشجار، فسألوه: ماذا تصنع؟ قال: ألا ترونني، أريد أن أحمل شجر الغابة كله مرة واحدة حتى لا نعود ونحتطب كل يوم. وذهل الرفاق إعجابًا وإكبارًا له، وخجلوا أمام محاولة ضخمة كهذه، وهكذا رجع الرجل شامخ الأنف يتدفأ على نارهم دون أن يأتي بعود واحد.

وهكذا نرى الزعماء الذين لا ضمير لهم يعرفون كيف تكون المزايدة السياسية لإغراء العامة، كما تبتعد السياسة عن مرض (السهولة)[1] الذي وقع فيه المسلمون في معالجة قضية كبيرة مثل قضية فلسطين، فبدلاً من أن يأخذوا للأمر أهبته، ويعلموا خطورة اليهود، ومن وراء اليهود، راحوا وبسذاجة سياسية يطلقون الشعارات التي توحي أن الأمر سهل، فهؤلاء اليهود سنلقيهم في البحر!! وهذه دويلة لا قيمة لها ... وهؤلاء أصحاب النوايا الحسنة، أما المتآمرون فهم كثر.

علم رسول اللّـه ﷺ أن هناك حكمة عليا من وراء بروك الناقة، وقال: «حبسها حابس الفيل»، وعلم أن اللّـه ناصره كما هزم أصحاب الفيل ومنعهم من دخول مكة إرهاصًا بنبوته ﷺ، وستكون الحديبية إرهاصًا ومقدمة لفتوحات جليلة، ولذلك صمم رسول اللّـه ﷺ على قبول أي خطة فيها تعظيم لحرمات اللّـه «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة[2] يعظمون فيها حرمات اللّـه إلا أعطيتهم إياها»[3]. وكثرت الوفود بين رسول اللّـه ﷺ وبين قريش، ولم يمل رسول اللّـه ﷺ من كثرة المفاوضين، وكان يعرف كل مفاوض ونفسيته وما يؤثر فيه، ولم يكن الموقف في صالح قريش، فالوفود التي قابلت الرسول ﷺ اقتنعت أنه لم يأت لقتال، وخشيت قريش أن ينقلب الأمر عليها، فبادرت في إرسال الوفود من قبلها، وأسرعت في عملية التفاوض، وتم عقد الصلح على الشروط التي ذكرت وبعضها كان مجحفًا بحقوق المسلمين ظاهر الأمر، ولكن رسول اللّـه ﷺ كان ينظر للغيب من ستر رقيق، فهذا العقد

---

(١) مالك بن نبي، تأملات: ٢٦، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥م.

(٢) خطة: خصلة.

(٣) ومن تعظيم حرمات اللّـه: ترك القتال في الحرم.

اعتراف من قريش بالمسلمين، ولن يسمع العرب بعد الآن لدعايات قريش، بل أصبحت هي التي تصد عن البيت، ثم تصالح المسلمين، «وقد أثنى اللَّـه على المسلمين إذ قبلوا تأجيل العمرة، ولم تأخذهم الحمية كما أخذت المشركين ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، تعريضًا بأن المسلمين جروا على رعي المصلحة، وأهملوا أمر الحمية والضغن»[1].

كان ﷺ يعلم أن الهدنة المتفق عليها ستتيح للمسلمين لقاء الناس ونشر الإسلام، كما قال الإمام الزهري: «أمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه»[2].

والدليل على كلام الزهري / أن عدد المبايعين في الحديبية كان ألفًا وأربعمائة، وبعد سنتين دخل رسول اللَّـه ﷺ مكة ومعه عشرة آلاف، وقد أسلم بعد الحديبية شخصيات كبيرة من قريش كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما سيتيح هذا الصلح لأن يتفرغ المسلمون ليهود خيبر آخر معاقل اليهود في الجزيرة العربية.

كان ﷺ يعلم أن هذه الشروط التي ظاهرها في صالح المشركين ستنقلب عليهم، فعندما انحاز أبو بصير وأبو جندل ومن معهم من المسلمين إلى ساحل البحر يعترضون عير قريش، تمنت قريش على الرسول ﷺ أن يضمهم إليه وتنازلت عن شرطها برد المسلمين الذين يخرجون إلى المدينة.

---

(١) الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ١٣٦.

(٢) مرويات الحديبية: ٢٨٠.

فقه عمر بن الخطاب ﷺ هذا الدرس السياسي في النظر إلى مآلات الأمور، فكان في خلافته يداري أهل العراق، فربما عزل واليهم كلما تذمروا وشكوا، وذلك لما يخشى من فتنتهم، وتعلم هذا الدرس عبد اللَّـه بن عباس ﷺ حين أشار على علي بن أبي طالب بما أشار عليه في شؤون الحكم والحرب، فكان علي ﷺ يقول بعدئذ: «للَّه در ابن عباس، كان ينظر للغيب من ستر رقيق».

لم يستفد المسلمون في هذه الأيام من دروس الحديبية، لقد واتتهم الفرص لنشر الدعوة والاختلاط بالناس وذلك بعد فشل النظريات القومية والمذاهب الاشتراكية، ولكنهم تبنوا أساليب أخرى لم تُقِمْ دينًا ولا دنيا ..

- ٢ -

ويتابع ابن القيم تعليقاته على الحديبية وحول حديث: «لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات اللَّـه إلا أعطيتهم إياها ..»، «إن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة، والظلمة، إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حرمة من حرمات اللَّـه، أجيبوا إليه وأعطوه وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات اللَّـه تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب للَّه تعالى، مُرضٍ له، أجيب إلى ذلك كائنًا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض للَّه أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس ..»[1].

رحم اللَّـه ابن القيم، ولاشك أنه مضيق صعب، لا يقدر عليه إلا مَنْ فقه مقاصد الإسلام فقهًا دقيقًا، وقد ورد في السيرة القيام بأعمال فيها نصرة للعدل

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٠٣).

ومحبوبة للَّه تعالى، جاء عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول اللَّـه ﷺ قال: «شهدت حلف المطَّيبين مع عمومتي – وأنا غلام – فما أحب أن لي حمر النَّعم وأني أنكثه»[1]. وقال في «النهاية في غريب الحديث»: وهذا الحلف هو حلف الفضول، وهو تحالف على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، ورد الفضول على أهلها، وسمي المطيبين لأن العشائر القرشية التي عقدت هذا الحلف هي التي عقدت حلف المطيبين الذي جرى قديمًا بعد وفاة قصي زعيم مكة، «ولا شك أن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها، حتى لو صدرت من أهل الجاهلية»[2].

فلو أن المسلمين وُجدوا في بلد لا يطبق الشريعة الإسلامية وظهرت فئة تحارب المنكرات والفواحش، فلا مانع من مساعدتها ومعاونتها، أو وُجد عمل إنساني يطال المسلم وغير المسلم، ولكن المسلم يستفيد منه أكثر مثل إنشاء جمعية لحقوق الإنسان، إلا أن يترتب على ذلك مبغوض للَّه كما ذكر ابن القيم، وعندما كان جند التتار يشربون الخمر وأراد تلامذة ابن تيمية نهيهم عن هذا قال شيخ الإسلام: «دعوهم فإذا تركوا الخمر اشتغلوا بقتل المسلمين».

- ٣ -

دخلت بنو خزاعة في حلف رسول اللَّـه ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في حلف قريش وعهدهم، وكان دخول بني خزاعة شاملاً لمؤمنهم وكافرهم، وقد

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٥٢٤)، وقال: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن حبان والحاكم وأحمد وسنده لا بأس به في الشواهد.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١١٢).

حاول البعض أن يستنبط من هذا فكرة التحالف مع الأحزاب الكافرة أو الدول العلمانية في سبيل إزاحة حزب آخر أو حكم آخر. وإننا نرى أن الأمر لا يتشابه، فخزاعة هي التي دخلت مع المسلمين وليس العكس، والمسلمون هم الأقوى ولهم دولة، وخزاعة قبل هذا الأمر «كانوا عيبة نصح لرسول اللَّـه ﷺ مؤمنهم وكافرهم، لا يخفون على رسول اللَّـه ﷺ شيئًا كان بمكة»[1]، «وكان الأصل في موالاة خزاعة للنبي أن بني هاشم في الجاهلية كانوا تحالفوا مع خزاعة فاستمروا على ذلك في الإسلام»[2].

بينما نجد في التحالفات السياسية التي يحاول الإسلاميون إقامتها في العصر الحديث، هم الضعفاء، لأن الدول أقوى منهم، والأحزاب التي يتحالفون معها مشهورة بالغدر وقلة الوفاء، وتفضيل مصلحتها الخاصة، وأمر آخر وهو الفرق بين حالة الدعوة والاستضعاف، وحال الدولة والقوة، ففي الحالة الأولى يكون الهدف الأول تجميع الناس على الدعوة وتقوية الصف الداخلي وليس صرف الوقت في التحالفات السياسية إلا أن تكون ذات فائدة مؤكدة للمسلمين وليس فيها تنازلات عن المبدأ، ولا يتم هذا إلا بوضوح المنهج والتصورات، ولا مانع أن يسكت عن جهة ليتفرغ لمحاربة جهة أشد بعدًا عن الإسلام، ولا مانع أن يسكت عن منكر أصغر في سبيل دفع منكر أكبر، وإذا كان من المتعسر دفع الكل فلا مانع من تعاون جهات عدة في سبيل مبدأ من مبادئ العدل والإنصاف، ولكن أن يتم التحالف مع عدو قوي ماكر، فهذا الذي أوقع المسلمين في المزالق السياسية.

---

(١) مرويات الحديبية: ١٢٢، والكلام للإمام الزهري.

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٣٨).

وأما عند وجود الدولة فالأمر يختلف، فالإمام ينظر في مصلحة المسلمين من هدنة أو صلح أو معاهدة على شروط معينة، وقد كان زعماء خزاعة مسلمين مثل بسر بن سفيان، وعمرو بن سالم، وأما بديل بن ورقاء فقد أسلم قبل فتح مكة.

- ٤ -

بعد أن وصل رسول اللَّـه ﷺ إلى المدينة، جاءه أبو بصير واسمه عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي حليف لبني زهرة، فارًّا من قريش ملتحقًا بالمسلمين في المدينة، ولكن حسب شروط الحديبية رده رسول اللَّـه ﷺ إلى قريش مع رجلين جاءا في طلبه، ولكن أبا بصير أثناء استراحة في الطريق قتل أحد الرجلين وهرب الآخر، ورجع هو إلى رسول اللَّـه ﷺ وقال له: قد أوفى اللَّـه ذمتك، قد رددتني إليهم، وقد نجاني اللَّـه منهم، فقال النبي ﷺ: «ويلُ أمه، مِسْعَر حرب[1] لوكان له أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر[2]، ولحق أبو جندل بن سهيل بن عمرو بأبي بصير، ثم لحق بهما المستضعفون من المسلمين حتى اجتمعت منهم عصابة، يقطعون الطريق على تجارة قريش، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده اللَّـه والرحم لما أرسل إليهم وضمهم إليه، فأرسل النبي ﷺ إليهم وهم بناحية العيص[3] فقدموا عليه.

إن كلمة الرسول ﷺ لأبي بصير ذم في معرض المدح، وتلميح لأبي بصير أن يتصرف بالشيء المناسب، قال ابن حجر: «فلقنها أبو بصير، وفيه إشارة إليه

---

(١) مِسْعر حرب: موقد حرب.

(٢) ساحل البحر، انظر: صحيح أبي داود (٢/ ٥٣١)، حديث رقم ٢٤٠٣.

(٣) في أرض جهينة.

بالفرار لئلا يرده إلى المشركين، ورمز إلى من بلغه ذلك من المسلمين أن يلحقوا به (لو كان له أحد)، وقال جمهور الشافعية وغيرهم: يجوز التعريض بذلك لا التصريح كما في هذه القصة»[1].

نعم، فهم أبو بصير هذه الإشارة وفهمها بقية المسلمين في مكة، فخرجوا إلى ساحل البحر يعترضون عير قريش. إن الرسول ﷺ ليس ملزمًا أن يرده إليهم ما دام أنه ليس في حوزة المسلمين، فالرسول ﷺ وفّى بالتزامه حيث ردّه في المرة الأولى، وكانت إشارته الخفية بأن يخرج من المدينة قمة في السياسة ومخادعة الأعداء.

- ٥ -

جاء في حديث الحديبية الذي رواه المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن المغيرة بن شعبة قام على رأس رسول اللّـه ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة (ابن مسعود) بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال له: أخر يدك عن لحية رسول اللّـه ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك[2]، وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء ..»[3].

قال ابن حجر: «فيه جواز القيام على رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو، وإظهار العز والفخر، وتعظيم الإمام وطاعته، ومثلها

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٥٠).

(٢) أي أنه يدفع ديات القتلى الذين قتلهم المغيرة.

(٣) فتح الباري (٥/ ٣٣٠)، زاد المعاد (٣/ ٣٠٤).

الخيلاء في الحرب، والصبغ بالسواد في الحرب. قوله: وأما المال فلست منه في شيء، أي لا أتعرض له لكونه أخذ غدرًا، ويستفاد منه أن لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدرًا، وأن أموال الكفار إنما تحل بالمحاربة والمغالبة ..»[1].

- ٦ -

تكلمنا في غزوة أحد عن الشورى في الإسلام، وأن رسول اللَّـه ﷺ كان من أكثر الناس استشارة لأصحابه، فقد استشارهم في بدر وأحد والخندق، وفي هذه الغزوة أشار عليه أبو بكر بأن لا يقتل القبائل التي عاقدت قريشًا، وأخذ برأي أبي بكر، واستشار أم سلمة وأخذ برأيها وبعض الذين كتبوا في السياسة الشرعية من القدامى والمحدثين يقولون: هذا من باب تطييب خاطر الأصحاب، ولكننا نرى أن هذا تعليم من الرسول ﷺ للمسلمين، وأمر الاستشارة أو الشورى أكبر من تطييب الخواطر، إنها استخلاص للرأي السديد، واستثارة للعقول الراجحة لتخرج ما عندها، ومن الملاحظ أن الرسول ﷺ لم يستشر أحدًا في هذا الصلح مع أن عادته في مثل هذه الأمور أن يستشير وقد استشارهم في أن يميل على ذراري القبائل التي أعانت قريشًا، وأما عقد الصلح فالأمر يختلف، فإن الذي منع الناقة من متابعة سيرها لا يأذن لهذه الكتائب أن توالي زحفها، كانت إرادة اللَّـه سبحانه وتعالى وراء إحكام عقد الحديبية، فليس للشورى هنا سبيل، وكم نتمنى من الذين لا يهتمون كثيرًا بالشورى أن يتبعوا الرسول ﷺ في كثرة الاستشارة والأخذ بالرأي القويم، فالمشكلة لا تكمن في الشورى (كمؤسسة) وهل هي إلزامية أم لا؟ بل تكمن أيضًا في أن الزعماء وقادة الدعوة لا يمارسون فقه الاستشارة للاستفادة من أهل التجربة والعلم.

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٤١).

- ٧ -

«عندما أرسل رسول اللَّـه ﷺ عثمان بن عفان إلى قريش، أمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن اللَّـه عز وجل مُظْهِرُ دينهِ بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان»[1].

أراد رسول اللَّـه ﷺ أن يدخل السرور على قلوب المسلمين المستخفين بإيمانهم، ولم يشغله ﷺ ما فيه من مفاوضات مع قريش أن يهتم بأمر كل المسلمين ولو كان فردًا أو أسرة، وهل أعظم من أن تبشر المسلمين بالنصر ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويستبشروا بالفتح، أليست من أعظم السياسات الاجتماعية والخلقية في التفاف القلوب حول القيادة وتماسك الجماعة صفًّا واحدًا. ولا يعلم أهمية هذه اللفتات النبوية إلا من عاش في ضيق من أعداء الإسلام أو عاش في غربة الإسلام حتى لو كان في وطنه.

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).

(١٩)

اللَّه أكبر.. خربت خيبر

كان مكافأة المسلمين على صبرهم وانقيادهم لحكم اللَّـه وحكم رسوله في صلح الحديبية، واستعدادهم للتضحية والفداء في بيعة الرضوان، كانت المكافأة أن فتح اللَّـه عليهم خيبر ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

أقام رسول اللَّـه ﷺ عقب رجوعه من الحديبية إلى شهر المحرم ثم خرج قاصدًا خيبر، وكان ﷺ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها[١]، حتى تتم مفاجأة العدو، فلم يشعر يهود خيبر إلا وجيش المسلمين قريب من حصونهم، فلما رأوه وكانوا قد خرجوا لمزارعهم، صاحوا: محمد والخميس[٢]، ورجعوا للاحتماء بحصونهم، فقال رسول اللَّـه ﷺ: «اللَّـه أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٣].

حاصر رسول اللَّـه ﷺ خيبر، وكان قتال ومبارزة بين المسلمين واليهود، ثم تساقطت الحصون واحدًا تلو الآخر.

وافتتحت خيبر عنوة ولكن أهلها طلبوا من رسول اللَّـه ﷺ أن يدعهم في مزارعهم يعملون بها، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، فأعطاهم الرسول ﷺ ذلك، على أن لهم الشطر (النصف) من كل زرع وكل ثمر، ويُقَرُّون في أراضيهم ما بدا

---

(١) يظهر ﷺ أنه ذاهب إلى جهة غير الجهة التي ينوي فتحها.

(٢) الخميس: الجيش.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣١٩).

لرسول اللَّـه ﷺ أن يقرهم[1]، أي أنّه ﷺ له الحق في إخراجهم من خيبر متى شاء؛ لأنها فُتحت بالسيف، قال ابن القيم: «والإمام مخير في أرض العنوة بين قَسْمها ووقفها، أو قسم بعضها ووقف البعض، وهكذا فعل بخيبر قسم شطرها وترك شطرها»[2].

بلغ قتلى يهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبيت نساؤهم وذراريهم، ووقعت في السبي صفية بنت حيي بن أخطب، فأعتقها رسول اللَّـه ﷺ وتزوجها. واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً[3]. وكان هذا الفتح مما دعم القوة الاقتصادية للمسلمين، ومما جعلهم يتفرغون أكثر لإتمام توحيد الجزيرة العربية تحت راية الإسلام.

*** الدروس المستفادة:**

١- عندما استعصى أحد حصون خيبر على المسلمين قال رسول اللَّـه ﷺ: «لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يحب اللَّـه ورسوله، ويحبه اللَّـه ورسوله، يفتح اللَّـه على يديه»، فبات الناس يدوكون أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا قال رسول اللَّـه ﷺ: «أين علي ابن أبي طالب؟»، فقالوا: هو يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، فأُتي به، فبصق رسول اللَّـه في عينيه، ودعا له، فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول اللَّـه، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّـه فيه، فواللَّـه لأن يهدي بك اللَّـه رجلاً واحدًا خير من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»[4].

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٢٦)، وقال: إسناده صحيح.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٢٩).

(٣) السيرة الصحيحة (١/ ٣٢٧).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٢٠)، وفتح الباري (٧/ ٤٧٦).

وفيه دلالة على أن إسلام يهود خيبر أحب إلى اللَّـه ورسوله من قتالهم وقتلهم، فليس هَمّ المسلمين القتل وأخذ الغنائم، بل إسلام واحد من الكفار خير من حمر النعم، وهذا ما نجده في كل العصور عندما ينجح المسلم في دعوة غير المسلم إلى هذا الدين فإنه يفرح فرحًا شديدًا، وليس هذا فحسب، بل إن المسلم يساويه بنفسه، ويصبح له ما للمسلم من حقوق، وما عليه من واجبات، لا فرق في ذلك، وكم تختلف هذه الصورة عن معاملة الملل الأخرى للشعوب التي يخضعونها لسيطرتهم.

٢- كان من شروط رسول اللَّـه ﷺ ليهود خيبر أن للمسلمين الحق في إخراجهم من أرضهم متى شاؤوا، قال ابن القيم تعليقاً: «ومنها: جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغني عنهم» كما قال النبي ﷺ: «نقركم ما أقركم اللَّـه»، وأجلاهم عمر بعد موته ﷺ، وهذا مذهب محمد بن جرير الطبري، وهو قول قوي يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه مصلحة»[1]. وأظن أن قوله «إذا استغني عنهم يقصد به: إذا نقضوا العهود أو غدروا بالمسلمين» وقد عاش النصارى واليهود تحت حكم المسلمين منذ أن تم الفتح الإسلامي لأكثر العالم المتمدن يومها، ولم ينغص أحد معاشهم، ولم يتعرضوا لأذى لا من قبل الشعب ولا من قبل الحكومات، والدليل على هذا استمرارهم في بلاد الشام والعراق ومصر، وغيرها من الأقطار، ولو ضيق عليهم في هذه البلاد لهاجروا إلى بلاد أخرى، ومع ذلك عندما لاحت لهم الفرصة للشماتة بالمسلمين وإهانتهم لم يتركوها، قال المؤرخ ابن كثير واصفًا أحداث عام ٦٥٨هـ بعد استيلاء التتار على البلاد الإسلامية: «أرسل هولاكو وهو في حلب جيشًا لأخذ دمشق،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٤٨).

فأخذوها سريعًا واستلم البلد أمير من التتار، وكان – لعنه اللَّـه – مُعظمًا لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم جدًّا وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو ومعهم أمان من جهته، ودخلوا من باب (توما)[1]، ومعهم صليب منصوب وينادون بشعارهم ويذمون دين الإسلام ومعهم أواني خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرًا، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، وكان في نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرًا من المساجد»[2].

وفي بداية الدولة العثمانية وفي أوج قوتها كان في نية السلطان سليم – كما يقال – بأن يجلي النصارى عن بلاد المسلمين بسبب تخوفه من اتصالهم بالدول الأخرى وتشويشهم على الدولة، ولكن مفتي الدولة العثمانية (زنبيلي علي أفندي) منعه بكل قوة وقال له: «إن هؤلاء ذمة، ولا يحق لك إخراجهم»، هذا مع سطوة السلطان سليم وجبروته، فيكون قد ثبت أن الشريعة الإسلامية بعدالتها وأمانتها هي التي حفظت المسيحيين في السلطنة العثمانية أيام كان السلطان يقدر أن ينفذ جميع ما يريده بهم، ومن العجيب أننا نرى نصارى الدولة العثمانية يفضلون أن تكون الحكومات الإسلامية ملحدة ولو كانت تخرج جميع النصارى من بلادها، وهذا أقصى ما يتصوره العقل من التحامل والتعصب على الإسلام، يكرهونه ولو حفظهم، ويحبون زواله ولو كان في ذلك زوالهم»[3].

وقد حصل للنصارى امتيازات في أواخر عهد الدولة بسبب ضغوط الدولة الأوروبية، ومع ذلك لم يشكروا هذه النعمة ولم يراعوا خلق الوفاء،

---

(١) أحد أبواب دمشق.

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٢١٩)، ط. مكتبة المعارف، بيروت.

(٣) شكيب أرسلان، تعليقات على تاريخ ابن خلدون: ١٧٧، ط ١٩٣٦م.

وعندما لاحت لهم فرصة الانتقام منها وإيذائها، لم يقصروا ولم يتوانوا، وكان نصارى لبنان وسورية من أوائل من أثار فكرة القومية العربية لمحاربة العثمانيين، والتحق كثير منهم بمصر، وأسسوا صحفًا ومجلات لمعارضة الدولة، بل لمعارضة الإسلام، وتركت لهم الحرية في ذلك، فهذا مؤسس جريدة الأهرام بشارة تقلا يقسم لأحمد عرابي الذي ثار على الإنجليز – يقسم له – أنّه واحد من الوطنيين المخلصين، وأنه يعمل لحرية البلاد، فلما قبض على عرابي، دخل عليه وتوقح عليه أشد التوقح، ثم بصق في وجهه شامتًا، قال عرابي: «فرأيت أن الرجل خائن ولا شرف له»[1].

* * *

(١) محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار: ٤٢١.

(٢٠)

ومن دخله كان آمنًا

«الفتح الأعظم»

كان صلح الحديبية فتحًا مبينًا حين وسَّع آفاق الدعوة أمام المسلمين وحين وطأ ومهد للفتح الأكبر الذي قضى على الوثنية في مكة والجزيرة العربية، ودخل الناس في دين اللَّـه أفواجًا.

وكان من أمر اللَّـه سبحانه وتعالى أن قريشًا نقضت عهد الحديبية بمساندتها لقبيلة بكر التي عدت على خزاعة (حليفة المسلمين) وغدرت بها، وقتلت منها، وهذا يعني انتهاء صلح الحديبية قبل وقته المحدد (عشر سنوات)، ورجعت حالة الحرب بين المسلمين وقريش، وكان من أثر ذلك أن عقد رسول اللَّـه ﷺ العزم على فتح مكة، واستطاع ﷺ أن يعمِّي خبر الاستعداد لهذا الفتح حتى لا تستعد قريش للمقاومة، فيدخل الرسول ﷺ مكة دون قتال، محافظًا على قبيلة قريش أن تستأصل، وأما ما كان من أمر الصحابي حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسل رسالة لقريش يخبرهم فيها باستعداد الرسول ﷺ، فإن هذه الرسالة لم تبلغهم فقد علم بها رسول اللَّـه ﷺ عن طريق الوحي وتدارك الأمر، وعفا رسول اللَّـه ﷺ عن حاطب لحضوره بدرًا.

أدركت قريش فداحة خطئها فذهب أبو سفيان محاولاً تجديد عقد الصلح ولكنه لم يفلح ولم يرد عليه الرسول ﷺ شيئًا.

وصلت كتائب الفتح قرب مكة وقريش لا تعلم وإن كانت على وجل وارتقاب لهذا الأمر، وكان زعيمها أبو سفيان يتحسس الأخبار خارج مكة، وقد أمسك به المسلمون وأخذوه إلى الرسول ﷺ وأشفق عليه صديقه العباس بن عبد المطلب فحرضه على إعلان إسلامه فأسلم، وذهب مستصرخًا أهل مكة أن يستسلموا، وأن من دخل داره كان آمنًا، ومن دخل المسجد كان آمنًا، وكان هذا ما أراده الرسول ﷺ، ودخل رسول اللّـه ﷺ مكة من أعلاها، ونصب رايته عند الحجون، ثم دخل المسجد وطاف بالبيت راكبًا وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا، وجعل رسول اللّـه ﷺ يطعن الأصنام بقوسه وهي تتساقط على وجوهها.

رجع رسول اللّـه ﷺ إلى مكة فاتحًا، بعد ثماني سنوات من هجرته، دخلها دخول الفاتحين المتواضعين الشاكرين للّه، أن هيّأ هذا النصر العظيم، ودخل الكعبة وصلى فيها، ثم وقف عند الباب، وخطب في قريش فقال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وصعد بلال الكعبة مؤذنًا، ورجعت رمزًا للتوحيد كما بناها إبراهيم عليه السلام.

أمّن رسول اللّـه ﷺ الناس كلهم، إلا أناس أمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد اللّـه بن سعد بن أبي السرح (كان قد أسلم وارتد)، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، وقيل (عبد اللّـه بن خطل)، والحويرث بن نقيذ، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء الرسول ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وأما ابن خطل وابن مقيس وإحدى القينتين فقد قتلوا، واستؤمن للبقية وأسلموا، وبعث رسول اللّـه ﷺ سراياه للأماكن المجاورة لهدم الأصنام والأوثان.

*** دروس الفتح:**

١- حشد رسول اللَّـه ﷺ في هذا الفتح كل طاقات المسلمين فكان معه حوالي عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وكافة القبائل التي أسلمت، وهذا حشد كبير، قد لا يحتاجه المسلمون لفتح مكة، ولكن الرسول ﷺ - واللَّـه أعلم - أراد توجيه ضربة سريعة، وإرعاب قريش، حتى لا يقع قتال في الحرم، وتستسلم مكة دون عناء، وشبيه بهذا عندما أسلم أبو سفيان والمسلمون معسكرون قرب مكة، طلب رسول اللَّـه ﷺ من عمه العباس أن يمسك أبا سفيان عند خطم الجبل لينظر إلى هذه الجموع وهذه الكتائب، وقد تحقق ما أراده الرسول ﷺ، فقد أُخذ أبو سفيان بهذه الجموع وقال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، قال له: إنه ليس الملك، إنها النبوة، وهذا مما يدعو لاستسلام أبي سفيان وهو زعيم مكة. وقد قيل: «إن أفضل حرب هي التي لا يتعين خوضها».

وفي هذا الحشد من الفوائد: مشاركة المسلمين في الفضائل والأمور الكبيرة الخطيرة، وأن أهل الحق إذا ساند بعضهم بعضاً فهذا مما يفتُّ في عضد أهل الكفر والنفاق.

ويُستفاد منها: أنه في مثل ظروف المسلمين الصعبة لابد من الحشد الإعلامي والفكري، لمواجهة الحملات الضارية الموجهة ضد المسلمين، وإظهار الحمية الإسلامية، والقوة الإسلامية، حتى لا يطمع في المسلمين كل طامع.

٢- في قصة الصحابي حاطب بن أبي بلتعة عبر كثيرة، فهذا الصحابي الذي حضر بدرًا وقع في لحظة ضعف، وكتب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول اللَّـه ﷺ، يظن بذلك أنه يقدم يدًا عند قريش يحمون بها قرابته، خاصة وأنّه لصيق بقريش وليس منها، وقد طلب عمر رضي الله عنه من الرسول ﷺ أن يضرب

عنقه لأنّه خان اللّـه ورسوله ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل اللّـه اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].

قال ابن القيم: «وفيها أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكفَّر بالحسنة الكبيرة الماحية، وهذه حكمة اللّـه في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات الموجبين لصحة القلب ومرضه، وعكس هذا (ذو الخويصرة التميمي) وأضرابه من الخوارج الذي بلغ اجتهادهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله مع عملهم كيف قال فيهم رسول اللّـه ﷺ: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»، فلم ينتفعوا بتلك الأعمال مع تلك المواد الفاسدة، فالمعول على السرائر والمقاصد والنيات والهمم»[2].

والمقصود أن ظاهر الخوارج الصلاة والصيام، ولكن قلوبهم قاسية فيها كبر وإعجاب واحتقار للمسلمين وتكفيرهم.

فهذه العبادة ظاهرية لا تدخل القلب الذي هو ملك الجسد، والذي أشار إليه ابن القيم / مهم جدًّا في تقويم الناس والنظر إليهم، وإلى العلاقات بين المسلمين، فليس صاحب النية الصادقة والسريرة الصافية، وإن أخطأ في بعض الأمور كمن أعجبته نفسه، ودخلت شهوة الرئاسة في قلبه.

ويتابع ابن القيم تعليقاته على قصة حاطب: «وفيها أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولاً وغضبًا للّه ورسوله ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٥٤).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٢٧).

يكفر بذلك، بل لا يأثم به، بل يثاب على نيته وقصده»[1]، ويعني ابن القيم ما تكلم به عمر رضي الله عنه حين قال للرسول ﷺ: دعني أضرب عنقه فإنه قد نافق، وخان اللَّـه ورسوله.

٣- قال ابن القيم تعليقًا على أن صلح الحديبية كان توطئة لهذا الفتح الأكبر: «وهذا شأنه سبحانه في أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها، المنبه عليها، كما قدم بين يدي قصة المسيح عليه السلام وخلقه من غير أب قصة زكريا عليه السلام وخلق الولد له مع كونه كبيرًا لا يولد لمثله، كما قدم بين يدي نسخ القبلة قصة البيت وبنائه وتعظيمه، وهكذا ما قدمه بين يدي مبعث رسوله ﷺ في قصة الفيل، وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول اللَّـه ﷺ كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة، وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد ..»[2].

إن على الدعاة والقائمين بأمر الإسلام في كل عصر مراعاة هذه السنة الإلهية، والتمهيد للأمور العظيمة حتى تأتي على قدر، وإن الذين يظنون أن أمرًا كبيرًا مثل استئناف حياة إسلامية، ودولة إسلامية تطبق شرع اللَّـه، يأتي فجأة دون ممهدات وأعمال كبيرة تتناسب مع ما سيأتي، من يظن هذا فإنه مخطئ قد فاته الصواب، وعندما أراد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز إعادة الأمور إلى نصابها، وإعادة الحقوق إلى أهلها، لم يستطع تطبيق ذلك دفعة، بل كان يمهد للأمر، فيقدم للناس شيئًا ويأخذ منهم أشياء حتى استقاموا، يقول

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٢٣).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤١٩).

/ : «ألا وإني أعالج أمرًا لا يعينني عليه إلا اللَّـه، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره»[1].

٤- عفا رسول اللَّـه ﷺ عن أهل مكة وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، ولكنه لم يعف عن نفر بأعيانهم، لما اشتُهروا به من الأذى للرسول ﷺ، أو من ارتد بعد إسلامه، حتى أنه لم يعف عن نساء كن يغنين بهجائه ﷺ، وقد هرب بعضهم، ثم استؤمن لهم، وقتل الآخرون، فأعداء الإسلام ليسوا في درجة واحدة، وليس المعارض العادي كمن يؤذي ويسب ويشتم، ولابد في الحساب والعقاب أن يكون على درجات، وليس هذا الدين ولا أصحابه بالذين يخدعون، وتدخل الشفقة على قلوبهم من أصحاب الفساد العريض، بل لابد أن يروا الغلظة والشدة، حتى تنحسم مادة الشر، ويرى هؤلاء الكفار أن المسلمين ليسوا من أهل الغفلة والسذاجة، وأنهم يفرقون بين أهل الكفر وأئمة الكفر، وأن من سبَّ الرسول ﷺ فلابد من استيفاء الحد «فإن النبي ﷺ لم يؤمن مقيس بن صبابة وابن خطل والجاريتين مع أن نساء أهل الحرب لا يقتلن»[2].

٥- حرمة مكة: جاء في خطبة الرسول ﷺ ثاني يوم الفتح ﷺ: «إن مكة حرمها اللَّـه ولم يحرمها الناس، فلا يحل لأحد أن يسفك بها دمًا»[3].

---

(١) الشاطبي: الاعتصام (١/ ٣٢).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٣٩).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٤٤٢).

قال ابن القيم ⁄ : «فهذا تحريم شرعي قدري، وهذا التحريم لسفك الدم المختص بها، هو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها لكونها حرامًا، والطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتل لاسيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهل مكة عن مبايعة يزيد وبايعوا ابن الزبير، فلم يكن قتالهم جائزًا بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق[1] وشيعته، وعارض نص رسول ﷺ برأيه وهواه، فقال: إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، فيقال له: إنه لا يعيذ عاصيًا من عذاب اللّـه، ولو لم يعذه من سفك دمه لم يكن حرمًا بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرمًا بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم صلوات اللّـه عليه وسلامه، وقام الإسلام على ذلك، وعلى هذا فمن أتى حدًّا أو قصاصًا خارج الحرم يوجب القتل، ثم لجأ إليه لم يجز إقامته عليه فيه، قال ابن عباس: «من سرق أو قتل في الحل ثم دخل الحرم، فإنّه لا يجالس ولا يكلم ولا يؤوى، ولكن يناشد حتى يخرج، فيؤخذ، فيقام عليه الحد ..»[2]، وفي «السير» للإمام محمد بن الحسن الشيباني: «إذا دخل الحربي الذي لا أمان له الحرم فإنّه لا يُهاج له بقتل ولا أسر»، وعلق شارح «السير»: وهذا أصل علمائنا: أن مباح الدم خارج الحرم يستفيد الأمن بدخول الحرم[3].

نقلنا هذا الكلام بطوله للإمام ابن القيم لأهميته البالغة في موضوع تحريم مكة، وأن اللّـه جعل هذا المكان ملاذًا للناس وأمنًا، وإذا كان هذا فيمن يسرق أو يقتل فكيف بمن يعارض الطغاة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ثم يخاف

---

(١) والي يزيد على المدينة وهو عمرو بن سعيد بن العاص الأموي.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٤٣ – ٤٤٧).

(٣) شرح السير (١/ ٣٦٦).

على نفسه، فيلتجئ إلى حرم اللّـه، فهل يجوز إخراجه أو سجنه أو تسليمه لبلد ظالم يضعه في السجن أو يقتله؟ وإذا كانت الطائفة الممتنعة التي خرجت على الإمام بتأويل، لا يجوز مقاتلتها، فكيف بمن لم يفعل ذلك، وإنما عارض الطغاة وهو من العلماء الدعاة؟

إن بعض الدول أو بعض الجمعيات تفتخر بأنها تدافع عن حقوق الإنسان، ولكنها مهما قامت به من الإنصاف والحياد والدفاع عن المظلومين فلن يبلغ مبلغ هذه البقعة المباركة التي حرمها اللّـه، وأنّى للبشرية بمثل هذا التشريع الذي لا يحمي الإنسان فقط، بل يحمي الحيوان والنبات، وقد كان العربي في جاهليته يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يحرك ساكنًا انصياعًا لحرمة المكان مع قوة عادة الثأر عند العرب.

* * *

(٢١)

يوم حنين

لم تستسلم هوازن وثقيف[١]، بعد أن استسلمت قريش، وكأن هذه القبائل لقوة شكيمتها وكثرة عددها ظنت أنها تستطيع ملء الفراغ الذي حدث بعد استسلام مكة، وأن تتزعم معسكر الشرك، مما يدل على أن أهل الشرك أهل عناد ويعتبرون أنفسهم شيئًا واحدًا، وربما كانت هذه القبائل في غفلة عن قوة المسلمين وانتصاراتهم السابقة فسولت لها نفسها أن تصارعهم، قال ابن القيم / تعليقًا على حمية هوازن وثقيف: «إن اللَّـه قذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونَعمهم وسبيهم نزلاً وضيافة وكرامة لحزبه وجنده»[٢].

عزمت هوازن على مهاجمة المسلمين قبل أن تُهاجَم، وقاد جموعها الكبيرة: مالك بن عوف النصري، من بني نصر بن معاوية، وانضمت معه بعض القبائل من غطفان، وحشد معه النساء، والأطفال والأموال، حتى لا يفر أحد، وكأنه أرادها معركة فاصلة، وقيل: إن جيش مالك بلغ عشرين ألفًا.

تعرف رسول اللَّـه ﷺ على ما تدبره هوازن وثقيف عن طريق رسوله عبد اللَّه ابن أبي حدرد الأسلمي، فتحرك ﷺ باتجاه حنين[٣]، وكان ذلك في أوائل شوال من السنة الثامنة، وقدكان فتح مكة في رمضان، وكانت عدة جيش المسلمين اثنا عشرة ألفًا، منهم ألفان من مسلمة الفتح، وخرج معهم من لا يزال على كفره.

---

(١) هوازن قبيلة عربية مشهورة من قيس عيلان من مضر، ومن فروعها ثقيف.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٧٨).

(٣) هي ما يسمى الآن بـ(الشرائع) التي تبعد عن مكة عشرين كيلاً.

سبقت هوازن إلى مكان المعركة (وادي حنين) واختاروا مواقعهم، وكمنوا في الشعاب، وعندما تقدم المسلمون انهالت عليهم السهام من جنبات الوادي (وكانوا رماة) وانكشفت خيالة المسلمين، وفَرَّ الطلقاء والأعراب ثم بقية الجيش، لا يلوي أحد على أحد، ولم يصمد مع رسول اللَّـه ﷺ إلا فئة قليلة جدًّا، منهم عمه العباس وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وأبو بكر وعمر وعلي، ودعا رسول اللَّـه ﷺ المسلمين إلى الثبات وهو يقول لهم: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، ولكن الفوضى التي أصابت المسلمين لم تسمح لعدد كبير منهم بالرجوع والإحاطة بالنبي ﷺ، فأمر رسول اللَّـه ﷺ عمَّه العباس – وكان جهوري الصوت – أن ينادي الأنصار، فرجع منهم حوالي المئة، فاستقبل بهم رسول اللَّـه ﷺ هوازن وبدأت جولة جديدة، وأخذ الرسول ﷺ حفنة من تراب، ورمى بها وجوه القوم وهو يقول: «شاهت الوجوه»، «انهزموا ورب محمد»، ولم تصمد هوازن في هذه الجولة، وبدأت كفة النصر تميل لجانب المسلمين، ثم كانت الهزيمة الكبرى لمعسكر الشرك، وخلفوا وراءهم أموالهم ونساءهم وقتل منهم أربع وسبعون رجلاً أثناء المعركة، وثلاثمائة خلال الهزيمة، وأما السبي فقد بلغ ستة آلاف.

أعجب المسلمون في بداية المعركة بعددهم، قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة، ثم كان الإدبار والهروب، ووجود الطلقاء والأعراب مما أضعفهم أيضًا، وقد شمت بعضهم بهزيمة المسلمين، فقال كلدة بن أمية: بطل السحر اليوم، فقال له أخوه صفوان: اسكت فضَّ اللَّـه فاك، فوالله لأن يُربني[1] رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. ولكن ثبات الرسول ﷺ والفئة القليلة التي معه حَوَّل – بفضل اللَّـه – الهزيمة إلى نصر عظيم، وكانت هذه الغزوة خاتمة الغزوات في جزيرة العرب، فقد ابتدأت ببدر وانتهت بحنين.

---

(١) يصبح سيِّدًا عليّ يحكمني.

*** دروس حنين:**

١- إن أول الدروس التي تظهر جلية واضحة من هذه المعركة، أن الاغترار بالكثرة من أسباب الفشل، فقد كان المسلمون في بدر وغيرها يخشون دائمًا من القلة، فحين اجتمع لهم في هذه المعركة العدد الكبير ظنُّوا أنه هو السبب الكبير في النصر، وليس هذا بالتأكيد ظن كل المسلمين، وإنما فئة منهم.

وإن الكثرة بلا تنظيم أو تخطيط تكون عائقًا عن العمل المثمر، وإن قلة مدربة تتقن عملها، وتخطط للمستقبل تغلب هذه الكثرة الفوضوية، وإن واقع المسلمين اليوم يشهد بذلك، فقد اغتروا بعددهم، وافتخروا بذلك (أكثر من ألف مليون)، ولكنهم من أضعف الأمم قوة واقتصادًا وعلمًا، بينما نجد أن فئة صغيرة كاليهود قد نظمت أمرها إعلاميًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا استطاعت أن تفعل أضعاف أضعاف حجمها، وقد جرَّت وراءها المعسكر الغربي لمساندتها، والعالم الإسلامي لا حراك به، وهذه الكثرة اليوم هي التي حذر منها رسول اللَّـه ﷺ ووصفها بالغثائية التي لا تغني شيئًا.

إن الكثرة مهمة في عملية البناء والجهاد، ولكن عندما تكون لَبِنات صالحة للالتصاق، يشد بعضها بعضًا، ونحن نجد اليوم أن الأقليات لهم شأن أيضًا؛ لأنهم يشعرون بالتحدي فيتعاونون وينظمون شؤونهم، والكثرة من أهل السنة لا تفعل هذا لأنها ما تزال تحمل آثار التاريخ، فقد كانوا هم الأعز الأقوى، فلم يشعروا بالخطر الكبير، وعاشوا في حالة من الاسترخاء، واليوم نجدهم هكذا في كل قطر، لم تستفزهم الأحداث، ولم ينبض لهم عرق لحماية أنفسهم، وحماية الإسلام السني.

٢- المؤلفة قلوبهم: ثبت عن رسول اللّـه ﷺ أنّه أعطى من غنائم حنين أعطيات كبيرة للمؤلفة قلوبهم من قريش ورؤساء القبائل[١]، حتى إن أحدهم ليقول: لقد أعطاني رسول اللّـه وإنّه لأبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليّ، وهؤلاء المؤلفة قلوبهم، إما أن يكونوا ضعيفي الإيمان فأراد الرسول ﷺ أن يتألفهم، مثل: أبي سفيان صخر بن حرب، والأقرع بن حابس التميمي، والعباس بن مرداس السلمي، وإما أن يكون بعضهم على كفره وحضر الغزوة مثل صفوان بن أمية الجمحي، وقد رجح ابن حجر وابن القيم أن الرسول ﷺ أعطاهم من أصل الغنيمة، وليس من الخمس أو خمس الخمس، واعتبر ابن حجر أن هذا مخصوص بهذه الواقعة.

وجد الأنصار في أنفسهم أن أعطى رسول اللّـه ﷺ هذه العطايا الكثيرة لقريش وسائر العرب، ولم يصبهم شيء منها، مع أنهم هم الذين آبوا إلى المعركة بعد الفرار، وهم الذين نصروا رسول اللّـه ﷺ، وهم الذين ناداهم العباس وحضهم على الرجوع بأمر من الرسول ﷺ، وقد قام زعيم الأنصار سعد بن عبادة بتبليغ الرسول ﷺ ما في أنفس الأنصار، فجمعهم الرسول ﷺ وقال لهم: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، ألم آتكم ضلاّلاً فهداكم اللّـه بي، وعالة فأغناكم اللّـه بي، وأعداء فألّف اللّـه بين قلوبكم؟» قالوا: اللّـه ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني؟ أما واللّـه لو شئتم لقلتم: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أَوَجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ من الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول اللّـه إلى رحالكم، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٧)، والسيرة الصحيحة (٢/ ٥١٢)، وزاد المعاد (٣/ ٤٧٣).

ووادِيًا لسلكت شعب الأنصار ووادِيها، الأنصار شِعار والناس دِثار[1]، اللَّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، (وفي زيادة) إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[2].

إن خطاب الرسول ﷺ واضح، فهناك أناس يأتون إلى الدين بلعاعة من الدنيا، ثم لعلّه يحسن إسلامهم شيئًا فشيئًا، وهذا ما وقع بالفعل لكثير من أمثال هؤلاء، هناك أناس يوكلون إلى إيمانهم العميق، وتضحياتهم وإيثارهم، وإذا كان هذا في لعاعة من الدنيا فالأمر سهل ولا يستحق العناء فعلاً ولكن ما بال الأمور الأخرى، مثل الإدارة والقيادة، هل تعطى لمن لا يستحقها، أو من دخل لطمع، أو من كان إيمانه ضعيفًا، أم تكون للسابقين الأولين الذين تربوا على يد النبي ﷺ، الأمر هنا مختلف، فلم يتولَّ في عهد الرسول ﷺ، ولا الخلفاء الراشدين من هو مغموص عليه في النفاق، أو من كان في قلبه مرض، ومع أن الأنصار لم يصبهم شيء كبير حتى في الأمور الإدارية والقيادية، وكأن هذا قدر كوني، فلذلك واساهم الرسول ﷺ بقوله لهم: «إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». وهذه الدنيا لا تستقيم كاملة، ولكن ليس من مصلحة الدعوات أن يبعد عن القيادة من هو أهل لها، وممن (استمرَّت مريرته) في الدعوة، وليس من مصلحة الدعوات أن يصل الانتهازيون إلى المراكز العليا، ممن يتقن التسلق على حساب الآخرين، فهناك فرق بين العطاء من المال قلَّ أو كثر، أعطي أم لم يُعط، وبين أن يتسلل من ليس له في الدعوة ناقة ولا جمل، فأمور الدنيا هينة ولا يحمل المسلم همها في قلبه، ولكنه يحمل هَمَّ الدعوة وأن تكون محفوظة محاطة.

---

(١) الشعار: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد، والدثار: الثوب الذي فوقه. وهذا كناية عن قرب الأنصار من الرسول ﷺ.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٤، وفتح الباري (٨/ ٤٧).

٣- موقف الأنصار: وفي مخاطبة رسول اللَّـه ﷺ للأنصار فوائد ولطائف ذكرها ابن حجر / فقال:

(١) حسن أدب الأنصار في تركهم المماراة والمبالغة في الحياء.

(٢) وفيه المعاتبة، واستعطاف المعاتب، والاعتذار والاعتراف.

(٣) وأن من طلب حقه من الدنيا لا عتب عليه في ذلك.

(٤) تسلية من فاته شيء من الدنيا، بما حصل له من ثواب الآخرة[١]، ويعني ابن حجر / أنهم لم يخفوا ما في أنفسهم ولم يبالغوا في الحياء، ويسكتوا على مضض، بل صرّحوا بذلك، وهذا هو الأفضل للمسلم، أن يعاتب أخاه إذا كان ذلك مصلحة له في دينه ودنياه، فليس في الإسلام مثاليات خيالية، والشيء المهم هو أن يؤوب ويرجع إلى الحق، ويتفهم الواقع، وإن موقف الأنصار وقبولهم بما قسم لهم ليدل على عمق إيمانهم وفقههم لدينهم. وقد حلّ الرسول ﷺ المشكلة ولم يؤجلها، فربما تستفحل، وتؤدي إلى فتنة، فقطع الرسول ﷺ دابرها بأحسن السبل وأيسرها، وهذا من صفات القيادة الناجحة.

٤- فوائد عامة: قال ابن حجر / تعليقًا على قول الرسول ﷺ: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

(١) جواز الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا في الجاهلية.

(٢) جواز التعرض للهلاك في سبيل اللَّـه، ويعني ابن حجر: ثبات الرسول ﷺ وحده مع ثلة قليلة من الصحابة.

(٣) شهرة الرئيس نفسه في الحرب مبالغة في الشجاعة وعدم المبالاة بالعدو[٢].

* * *

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٢).

(٢) فتح الباري (٨/ ٣٢).

(٢٢)

غزوة العسرة

الصراع مع الروم - ظاهرة النفاق

عندما نزلت فواتح سورة الروم في مكة، كانت الآيات تتحدث عن الصراع الدولي الذي يحيط بالجزيرة العربية، كما تحدثت عن علاقة المجتمع المسلم (قبل أن يصبح دولة) بهذا الصراع، وكيف يُنظر إليه، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ١ - ٥].

ذكر المفسرون حول هذه الآيات أن المشركين كانوا يحبون ظهور الفرس لأنهم مجوس أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم لأنهم أهل كتاب[١]، ولكن المفسر ابن عطية أشار إلى ناحية مهمة عندما قال: «ويشبه أن يقال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يَغلِب العدوُّ الأصغر، لأنه أيسر مؤونة، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه، فتأمل هذا مع ما كان رسول اللّـه ﷺ ترجّاه من ظهور دينه وشرع اللّـه عز وجل الذي بعثه به، وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه اللّـه تعالى بملك يستأصله ويريحهم منه»[٢].

---

(١) انظر: ابن كثير (٣/ ٤٢٢)، تفسير سورة الروم.

(٢) ابن عطية: المحرر الوجيز (١١/ ٤٢٥).

يريد هذا المفسر الكبير أن يقول: إن المسلمين فرحوا بنصر الروم؛ لأن انتصارهم إضعاف للعدو الأكبر (الفرس)، ولو غلب الفرس لكان في هذا توهين للمسلمين وزيادة لخوفهم، فلما ضعف العدو الأكبر كان ذلك تمهيدًا للانتصار على العدو الأصغر (الروم) الذي أُنهكت قوته بالصراع مع الفرس، فإن هؤلاء وإن كانوا أهل كتاب، وهذا أقرب للمسلمين، ولكنهم أقرب منالاً لأن تُفتح بلادهم، ويبسط الإسلام سلطانه عليها، وقد تأوَّل ابن كثير هذه الآية ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، على الروم، فهم الأقرب إلى الاستجابة للدعوة.

ولا يمنع من التفسير الذي يقول بتعاطف قريش مع فارس الوثنية المجوسية إضافة أسباب أخرى: وهي أن قريشًا باتت تخشى من تحرك الروم الاقتصادي في البحر الأحمر، وغايتهم الاستيلاء على طرق التجارة التي كانت تحتكرها قريش وعرب الحجاز، كما أن الروم بدؤوا بالتفكير في إقامة جيوب لهم في الجزيرة العربية، خاصة وأن لهم قاعدة قوية في الحبشة[1]. والذي يهمنا أن الأهداف البعيدة للإسلام تقتضي إضعاف الخصمين (الفرس والروم) لإقامة الدولة الإسلامية، وأن الإسلام سوف لا ينحصر في الجزيرة العربية، ولذلك بدأ الرسول ﷺ بتدريب وتوجيه الصحابة إلى الوجهة المقبلة، إنها الشام وإبعاد الروم عنها، «ويبدو أن الرسول ﷺ أحس بزكانته البارعة وإدراكه البعيد منذ تم فتح الحديبية أن الأمور تجري لمستقر لها، وأن مكة توشك أن تسلم له قيادها فإذا هو تقدم إلى الأطراف الشمالية، فإنما يستشرف بالجماعة الإسلامية هدفها الذي

(١) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، د. التيجاني عبد القادر: ١٢٧، وقارن كيف أن الحبشة اليوم هي جيب من جيوب الغرب القوية في المنطقة.

يريد أن تتوجه إليه»[1]، وكأن رسول اللّـه ﷺ استشرف أيضًا من مقدمات سورة الإسراء أهمية ما حول الأقصى (بلاد الشام) التي أفسد اليهود فيها مرتين، وأنّها يجب أن تكون قاعدة للإسلام على أنقاض هذا الفساد الإسرائيلي وهذا الاستعباد الروماني، كما اتخذها إبراهيم عليه السلام من قبل موطنًا لنشر الدعوة.

وكانت البداية لهذا التوجه غزوة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة، وسواء كان سببها مقتل رسول رسول اللّـه ﷺ إلى ملك بصرى، أم الأمر أكبر من ذلك وهو تحرير القبائل العربية المستقرة في شمالي الجزيرة وجنوبي بلاد الشام من الهيمنة الرومانية وجعلهم تحت رعاية الدولة الإسلامية، فهذه القبائل يمكن أن تستخدم من قبل الروم للتحرش بالمسلمين. «وكذلك استئصال ما مكن للروم من هيبة في نفوس هذه القبائل، وكان خضوع صاحب أيلة وصلح أهل جرباء وأذرح بداية طيبة لفتح منافذ الطرق إلى الشام، إنه كسر لخطوط المقاومة الأولى»[2].

تحدث ابن سعد عن السبب المباشر لغزوة تبوك فقال: «إن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجُذام وعاملة وغسان، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء»[3]، ورواية الواقدي تؤكد أن هرقل لم يكن عنده نية للقتال وإنما ذلك شيء قيل لهم (التجار الذين يقدمون المدينة من الشام) فقالوه[4]، ولكن لا نستطيع الأخذ برواية الواقدي لضعفه عند المحدثين، وما الذي يمنع هرقل من أن يحرش القبائل العربية التي كانت محنقة على

---

(١) د. شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي: ١٢٥.

(٢) المصدر السابق:٢٩.

(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٥).

(٤) مغازي الواقدي (٣/ ٩٩٠)، عالم الكتب، بيروت، تحقيق: مارسدن جونس.

المسلمين، فقد جاء في حديث عمر ﷺ: «وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لغزونا»[1]، وفي رواية: «وقد امتلأت صدورنا منه»، وأما هرقل وتقدمه للبلقاء فربما يكون قد عدل عن خطته بعد أن سمع عن قوة المسلمين وقيادة الرسول ﷺ لهذه الجموع.

قد تكون هذه أسباب مباشرة، فإذا علمنا أهداف الرسول ﷺ بالاتجاه والدعوة نحو الشام يتضح سبب الغزوة، والإسلام له أهدافه البعيدة وهي تحرير الإنسان من الطواغيت، وإنما أراد الرسول ﷺ - واللَّـه أعلم - تشجيع المسلمين وتجريئهم على الروم، وإزالة ما مُكِّن لهم من الهيبة في النفوس، فكان الصدام الثاني مع الروم في غزة تبوك، والتي حشد لها الرسول ﷺ أكبر جيش في حياته، حيث قدره المؤرخون بثلاثين ألفًا، وكان البعث الثالث هو الجيش الذي هيأه الرسول ﷺ قبيل وفاته وأمَّر عليه أسامة بن زيد ﷺ.

وتوفي رسول اللَّـه ﷺ ولم يغادر أسامة المدينة، كل هذا كان تمهيدًا وتعليمًا للمسلمين الذين فقهوا الدرس وانساحوا في الأرض لنشر الإسلام.

كانت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة، وفي شدة من الحر، وشدة في المؤونة، وبعد الشقة وقد سمّاها اللَّـه سبحانه وتعالى (ساعة العسرة)، وتخلف عنها المنافقون والأعراب وحضرها بعضهم ابتغاء الفتنة، كما تخلف عنها نفر قليل من المسلمين، وقد أنفق فيها عثمان بن عفان ﷺ نفقة عظيمة، وأعجب ذلك رسول اللَّـه ﷺ فقال: «ما ضر ابن عفان ما فعل بعد اليوم»[2].

---

(١) مسند أحمد (١/ ٣٤٨)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تحقيق الحديث في الصحيحة (٢/ ٥٢٥).

عسكر رسول اللّـه ﷺ عشرين يومًا في تبوك ولم يلق كيدًا، ولم يقع قتال مع الروم، وأتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة[1]، وصالحه على الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح[2] فكتب لهم رسول اللّـه ﷺ كتابًا، وأرسل خالد بن الوليد إلى (دومة الجندل)، فأتاه بصاحبها وصالحه الرسول ﷺ على الجزية. وبذلك حققت هذه الغزوة أهدافها، «فقد شق رسول اللّـه ﷺ للمسلمين طريقهم، وكسر خطوط المقاومة الأولى، ولم تعد هذه الواحات العربية تعيش في حماية الروم»[3].

رجع رسول اللّـه ﷺ منتصرًا وعندما اقترب من المدينة ولاح له جبل أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[4]، وخرج الصغار ينشدون (طلع البدر علينا)، ثم دخل مسجده وصلّى فيه ركعتين، وجاءه المعذرون من الأعراب والمنافقون فلم يعاتبهم، لأنهم لا يستحقون العتاب، وإنما عاتب الثلاثة الذين تخلفوا من المسلمين، وأمر بهجرهم ثم تاب اللّـه عليهم.

تحدثت سورة (براءة) عن أحداث هذه الغزوة، وذكرت تخلف المنافقين، وذكرت أقوالهم في تثبيط المؤمنين، وتتابعت الآيات تفضحهم في أقوالهم وأفعالهم، وأُمر رسول اللّـه ﷺ بألا يصلي على أحد منهم، ولا يستغفر لهم، وأمر بالإغلاظ عليهم، وهدم مسجدهم الذي بنوا مكيدة للمسلمين.

* * *

(١) هي ما تعرف اليوم بـ(العقبة) ويجاورها من القسم المحتل من فلسطين إيلات.

(٢) قريتان قرب معان.

(٣) د. شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي: ٢٩.

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٧٧).

ظاهرة النفاق

من أخطر الأمور التي رافقت تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة ظاهرة النفاق الاعتقادي أو النفاق الأكبر، وهو إضمار الكفر والكره للدين وإظهار الإسلام، وكان لهذه الفئة المنافقة دور تخريبي في أحد والخندق وبني المصطلق مع الدسائس المستمرة والتشويش الفكري، والتنسيق مع يهود المدينة، وقد آثرنا تأجيل الحديث عن المنافقين للحديث عنهم في غزوة تبوك؛ لأنّ النفاق وقد رأى قوة الدولة ومحاربتها للروم لم يجد أمامه إلا فرصة واحد تظهر ما يخفي من الحقد وهي قتل الرسول ﷺ، فحاولوا ذلك ببناء مسجد الضرار، وحاولوا ذلك أثناء رجوعهم من تبوك، ونزلت سورة براءة تفضحهم وتطلب من الرسول ﷺ عدم التهاون معهم، والإغلاظ عليهم، وسميت هذه السورة (الفاضحة) كما جاء عن ابن عباس، و(البحوث) كما جاء عن المقداد بن الأسود، و(المثيرة) كما قال قتادة، ثم كانت نهايتهم كقوة وظهور، ولم يتجرأ منافق بعدها في الإعلان، بل استتروا وماتوا بغيظهم، يقول ابن تيمية تعليقًا على أمر اللّـه تعالى بالإغلاظ عليه: «فهذا يفيد أن النبي ﷺ كان يحتمل من الكفار والمنافقين قبل براءة ما لم يكن يحتمل منهم بعد ذلك»[1]، وقد أعلم اللّـه نبيه بأسمائهم، وأعلم الرسول ﷺ الصحابي حذيفة بن اليمان بأسمائهم، فكان عمر رضي الله عنه ينظر إذا توفي أحد في المدينة هل صلّى عليه حذيفة أم لا؟ فإن لم يصل عليه علم أنه منافق فلا يصلي عليه.

---

(١) الصارم المسلول: ٢٢٤.

ولكن النفاق ظاهرة عامة، وإنما لم تعرفها العرب؛ لأنه لم يكن لهم مجتمع مدني سياسي، ولم تعرف في مكة في فترة الدعوة الأولى؛ لأن المسلمين كانوا ضعافًا لا مطمع فيهم ولا مغنم عندهم، فلما تأسس المجتمع الإسلامي وقامت الدولة ظهر النفاق، وساعد على ذلك وجود اليهود الذين انحرفوا عقائديًّا، والتوت نفوسهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويشترون بآيات اللَّـه ثمنًا قليلاً، وقد حسدوا المسلمين والعرب أن ظهر النبي منهم، وتحالفوا مع المنافقين، وإنما ينجم النفاق عن تلك النفوس المريضة الجبانة التي لا تتجرأ على الظهور بأفكارها، أو تلك النفوس التي لا ترى إلا حياتها الدنيا، فإن أُعطيَ أحدهم رضي وإن لم يُعْطَ سخط، وهناك نفوس تكره الحق، ولا تحب العيش إلا في المستنقع الآسن، فهي تَشْرَق بدعوة التوحيد والعبودية للَّه وحده.

*** خطورة النفاق:**

النفاق مصطلح إسلامي لا تعرفه العرب، وإن أصل الاشتقاق اللغوي معروف عندهم[1]، ففي الاصطلاح الشرعي: إظهار الإسلام وإبطان الكفر، أو الكره لدين الرسول ﷺ، وهذا هو النفاق الاعتقادي، وهناك النفاق العملي أو الأصغر وهو التخلق بخصلة من خصال النفاق كالكذب أو إخلاف الوعد أو الفجور في الخصومة، فهذه قد تكون في المسلم ولا يكون منافقًا نفاقًا أكبر، خارجًا عن دائرة الإسلام.

إن خطورة النفاق الاعتقادي أن أفراده يعيشون داخل الصف المسلم، وهم في الظاهر مسلمون، ويستطيعون زعزعة هذا الصف بكل الوسائل الماكرة من

---

(١) فالنَّفق هو السِّرب في الأرض النافذ إلى موضع آخر، و(النافقاء) جحر اليربوع الذي يتخذ لنفسه نفقًا، له مخرجان أو أكثر، ليستر هربه، المنافق فيه شيء من هذا التستر.

الدس والتآمر وإطلاق الإشاعات الكاذبة، وإضعاف الثقة في القيادة المسلمة، ولقد طعنوا في شخصية الرسول ﷺ وأنّه يسمع أيَّ كلام يقال له ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .. ﴾ [التوبة: ٦١]، أو الطعن في عرضه (اتهام عائشة رضي اللّـه عنها في حادثة الإفك)، وهذه من أخبث الوسائل وأمكرها، أو بلبلة الصف الإسلامي بإشاعة الخَوَر فيه والضعف، وذكر قوة الأعداء، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، وقالوا للمسلمين: أتظنون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب؟ واستعملوا أسلوب السخرية والاستهزاء، كما جاء في أحداث تبوك حين سخروا من الصحابة: (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أجبن عند اللقاء)، وسينزل في قولهم هذا قرآن ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ ... ﴾ [التوبة: ٦٥ – ٦٦]، وسيلجؤون إلى الاغتيال عندما هموا بقتل الرسول ﷺ في طريق رجوعه من تبوك ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ .. ﴾ [التوبة: ٧٤]، وسيحاولون تشويه العقيدة الإسلامية الصافية بالتشويش على المسلمين في موضوع القضاء والقدر ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ .. ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

كل هذا الكيد، وهم بمنأى عن القتل أو العقوبة؛ لأنّ الرسول ﷺ كان يعرض عنهم، ولا يحب أن يقال أن محمدًا يقتل أصحابه، فهم في الظاهر وعند من لا يعرفهم مسلمون ومن أصحاب النبي ﷺ، وحتى عندما ينكشف حالهم يلجؤون إلى الحلف الكاذب، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦].

وبسبب هذه الخطورة، أفاض القرآن في الحديث عنهم، وذكر أوصافهم وأساليبهم، وطرائق تفكيرهم، بشكل واضح ومفصل حتى كأننا نراهم بأعيننا ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ .. ﴾ [المنافقون: ٤]، ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ .. ﴾ [النساء: ١٤٢]، وذلك لأن هذه النماذج يمكن أن تتكرر في كل عصر، فقد ظهر الزنادقة في العصور الأولى للدولة الإسلامية، الذين يشككون الناس بدينهم بشكل خفي، وأظهروا كفرهم بقالب المجون والاستهزاء، أو بقالب حركات سرية فلسفية، كإخوان الصفا، وكما ظهر عند غلاة الشعوبية الذين أظهروا كفرهم لهذا الدين في قالب تحقير العرب وعاداتهم، والنفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو المسرة بانخفاض دينه، هذا النفاق يقول ابن تيمية: «كان موجودًا في زمن الرسول ﷺ وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده»[1].

هذا القدر موجود أيضًا في هذا العصر الذي ارتد فيه أناس وأنكروا القواعد الإيمانية والإسلامية أو بعضها أو فرحوا بانهزام المسلمين وانخفاض دين الإسلام، ولكنهم ظلوا محافظين على الصورة الظاهرة: أنهم مسلمون. وموجود في العلمانيين الذين يريدون حصر الإسلام في (المسجد) وفصل الدين عن شؤون الحياة ويستهزئون بالعلماء، ويحبون نشر الفساد في الأرض، ويكرهون انتصار هذا الدين، وربما انخدع بعض المسلمين بهم، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٤٧]، وهم الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام كما تعاون سلفهم من قبل، يقول ابن تيمية: «وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات (عصر ابن تيمية) فيهم ميل

---

(١) العقود الدرية: ١٣٣.

إلى التتار لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام»[1]، وقد يندس بعضهم في الصف الإسلامي لإشاعة الفرقة والفتنة، وقد يقيمون مراكز للضرار، ومؤسسات للضرار، فالنفاق مرض في القلب يستمر ما دام هناك إسلام وصراع مع الباطل وصراع بين الخير والشر، وهم كسلفهم من المنافقين جبناء يخشون أن يذكروا أمام الناس بأنهم منافقون وأنهم لا يحبون الدين والمتدينين ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ .. ﴾ [التوبة: ٦٤].

كما يبرز دائمًا النفاق العملي والنفاق السياسي والمداهنة لأهل الباطل من أناس محسوبين على الدعوة وأهلها، فيكون ذلك فتنة للناس وينخدع بهم فئة تبرر لهم أفعالهم لأنهم يقولون لهم: ما أردنا إلا الحسنى ومداهنتنا لهؤلاء الطغاة إنما كانت لمصحلة المسلمين، والحقيقة أنهم يمكنون للفساد في الأرض، روى البخاري في كتاب (الأحكام/ ٦٦٤٢): أن أناسًا قالوا لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم خلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، فقال: كنا نعدها نفاقًا.

ولشدة ما جاء في القرآن الكريم عن النفاق وأهله ولكثرة تحذير المؤمنين من مكايدهم، فإن الصحابة رضوان اللّـه عليهم ولعظمة إيمانهم وخوفهم من اللّـه سبحانه وتعالى كانوا يخافون على أنفسهم من أن يصيبهم شيء من النفاق العملي، وكأنهم يتخوفون تناقص الإيمان عن مستواه الرفيع الذي كانوا عليه أو الانغماس في الدنيا مما يؤدي إلى تغاير الظاهر والباطن ولو شيئًا يسيرًا. أخرج البخاري في باب الإيمان أن ابن أبي مليكة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه .. ويذكر عن الحسن (البصري): ما

---

(١) العقود الدرية: ١٣٤.

خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق .. كما جاء في مسلم عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحانه اللّـه، وما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول اللّـه ﷺ يذكرنا: بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول اللّـه ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فواللّـه إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول اللّـه ﷺ فقلت: نافق حنظلة يا رسول اللّـه، فقال رسول اللّـه ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول اللّـه نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، فقال رسول اللّـه ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة»[1].

*** دروس أخرى من تبوك:**

(١)

إن قصة الثلاثة من الصحابة الذين تخلفوا عن رسول اللّـه ﷺ، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، والذين عاتبهم رسول ﷺ، وأمر بمقاطعتهم، ثم تاب اللّـه عليهم، قصة هؤلاء مليئة بالدورس التربوية ومنها: أن الضعف البشري حين ينتاب الإنسان في حادثة معينة أو في فترة معينة، فلا يعني هذا طرده من الصف المسلم ومن الجماعة المسلمة، فيتعرض للفتنة، وقد حاول ملك غسان استغلال هذه الحادثة، فأرسل رسالة إلى كعب بن مالك يدعوه للمجيء إليه وترك المدينة، ولكن كعبًا وإخوانه كانوا فوق ما يتصوره

---

(١) صحيح مسلم، باب التوبة: ٢٧٥٠.

ملك غسان وأمثاله فإن مقاطعة المسلمين لهم لا يعني انزلاقهم وبعدهم عن الجماعة والالتحاق بأعداء الإسلام، ولكنهم صبروا حتى جاءت توبة اللَّـه عليهم، وكان احتفال الصحابة بتوبتهم وفرحهم دليلاً على الأخوة العظيمة وعلى الصدور السليمة، وأن ما يقع اليوم في الصف الإسلامي مما يسمونه (تجميد) أو (إبعاد) ومحاربة الأخ لأخيه إذا ترك جماعته، إن هذا بعيد عن التربية الصحيحة وبعيد عن الأخلاق الإسلامية.

(٢)

في الطريق إلى تبوك مرَّ الجيش الإسلامي بديار ثمود التي حلَّ بها العذاب لمخالفتهم لنبيهم صالحاً عليه السلام، وقد نهى الرسول ﷺ المسلمين عن المكث في تلك الديار، أو الشرب من مائها أو استعماله، والإسراع في السير حتى يتجاوزونها، وهذا ينبئ عن شدة حساسية الرسول ﷺ من ديار العذاب، وذلك لأن أعلم الناس باللَّـه هم الأنبياء، ومن يعلم اللَّـه يكون على درجة عالية من الخوف والرجاء، ومن المحبة والخشية، والبعد عن المواطن التي وقع فيها العذاب كما فعل ﷺ عندما مرّ بوادي محسر بين مزدلفة ومنى، وقد ورد من حديث عائشة رضي اللَّـه عنها «أنّه ﷺ كان إذا رأى مَخيلة في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سرِّي عنه»[1].

(٣)

تبرز شخصية الرسول ﷺ بكل قمتها الإنسانية عندما اقترب من المدينة في طريق العودة ورآها من بعد فقال: «هذه طابة، هذا أُحُد جبل يحبنا ونحبه»، وبعض العلماء يفسر هذا الحديث بأنه يحب أهل الأنصار، وهذا ليس بعيدًا، فقد

(١) أخرجه البخاري في باب بدء الخلق (٣٢٠٦).

أودع عند سفح هذا الجبل خاصة أحبائه، ولكن هذا الحديث يدل أيضًا على شفافية في العلاقة بين الإنسان والكون، إنها قمة سامقة من العاطفة والصلة بين الإنسان والأشياء، وهكذا كان رسول اللّـه ﷺ يسمي آنيته ودوابه، ويسمي الناقة والسيف والقدح، فكان له سيف يسمَّى ذا الفقار، وكانت له راية سوداء يقال له: العقاب، ومن البغال، دُلْدُل، وكانت شهباء، ومن الإبل: القصواء والعضباء[1]. وهذه تربية قرآنية على التآلف بين الإنسان والكون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ... ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ .. ﴾ [الكهف: ٧٧].

(٤)

ويستفاد من أمر اللّـه لرسوله ﷺ بهدم مسجد الضرار، وتحريقه، خطورة الأماكن التي يتظاهر أصحابها أنها بنيت حمية للدين، وحبًّا في نشره، وإنما أسست في الواقع لمحاربة الإسلام الصحيح، ومحاربة الدعاة المخلصين عن طريق جمع الأتباع والرعاع وتشويه الصف المسلم، قال ابن القيم ⁄: «وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ مَنْ فيها أندادًا من دون اللّـه أحق بالهدم، وكذلك تحريق أمكنة المعصية وهدمها، كما حرق رسول اللّـه مسجد الضرار، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله، وقد حرق عمر بن الخطاب قرية يباع فيها الخمر، وحرق حانوت رويشد الثقفي، وسمّاه فويسقًا، وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية»[2].

---

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (١/ ١٣٠).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٧١).

(٥)

ومنها: أن الاستهزاء باللَّـه وآياته وبرسوله كفر، وأن كل من تنقص رسول اللَّـه ﷺ جادًّا أو هازلاً فقد كفر[١]، ويشبه هذا من يستهزئ اليوم بالشعائر الإسلامية، أو يعتبرها منافية للعصر الحديث.

(٦)

قال ابن القيم تعليقًا على النفقة التي قام بها بعض الصحابة وخاصة عثمان بن عفان رضي الله عنه لتجهيز الجيش لغزوة تبوك: الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر بالجهاد بالنفس، كما قال ﷺ: «من جهز غازيًا فقد غزا»[٢]، وبهذا تظهر منزلة عثمان رضي الله عنه فربما يُظن لأول وهلة أن من قاتل وقتل أفضل ممن لم يقاتل ويَقْتل، فالمنزلة هي منزلة النية والقلب والفهم والقرب.

(٧)

وقال ابن القيم أيضًا تعليقًا على مبادرة كعب بن مالك بإتلاف الرسالة التي أرسلها ملك غسان: «وفيه المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين، أن الحازم ولا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشر»[٣]. وتعليقًا حول قول كعب رضي الله عنه: «أوتيت جدلاً»، يقول ابن القيم: «جواز مدح الرجل نفسه إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع، وفي القصة أيضًا جواز دخول الإنسان دار صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك وإن لم يستأذنه»[٤].

---

(١) ابن تيمية، الصارم المسلوم: ٣١.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٥٨).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٥٨١).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٥٨٠).

(٨)

ظهرت في أحداث هذه الغزوة نماذج إيمانية عالية لا تكون إلا في الصحابة، منهم: البكاؤون الذي لم يكن معهم ظهر يحملهم إلى تبوك، ولم يستطع رسول اللَّـه ﷺ تأمين ما يحملهم، فجلسوا في بيوتهم يبكون، قال ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم سيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم»، قال ابن القيم: «وهذا جهاد بالقلب وفي الحديث: جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم»[1]، ومنهم الذين تأخروا قليلاً ثم لحقوا برسول اللَّـه ﷺ، وقد قرب من تبوك مثل أبي خيثمة وأبي ذر الغفاري، لقد أبوا أن يكون رسول اللَّـه ﷺ في الحر والسفر الطويل، وهم آمنون في الظلال والماء البارد.

إن هذه النماذج هي التي تجعل جيل الصحابة يختلف عن غيره من الأجيال الذين يكثرون من الكلام ويقلون من الأفعال، هذا الإيمان عند الصحابة هو الذين يدفع أحدهم للسير في الصحراء وحيدًا حتى يلحق برسول اللَّـه ﷺ.

* * *

(١) المصدر السابق (٣/ ٥٧١).

(٢٣)

لا يحج بعد العام مشرك

كانت تبوك في شهر رجب من العام التاسع، وفي هذا العام أيضًا بعث رسول اللّـه ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أميرًا على الحج، فهل فُرض الحج هذا العام، أم في العام العاشر عندما حج رسول اله ﷺ؟ جزم ابن القيم أنه فُرض في العام العاشر حين بادر رسول اللّـه ﷺ لأداء هذا النسك، ولكنه قال في كلام سابق: «فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر»[1]، ثم إنّه ورد أن رسول اللّـه إنما امتنع عن أداء الحج هذا العام؛ لأن العرب مايزال فيهم المشركون الذين يحجون ويطوفون بالبيت عراة.

بعد مسير أبي بكر رضي الله عنه نزلت أوائل سورة براءة، وفيها قطع للعهود العامة مع المشركين، وإنذار لهم بألاّ يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإعطائهم مهلة أربعة أشهر (ابتداء من اليوم العاشر من ذي الحجة)، ليفيئوا إلى رشدهم ويعلنوا دخولهم في الإسلام، أو تكون عقوبتهم القتل: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٠١).

وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [براءة: ١ - ٥].

أرسل رسول اللَّـه ﷺ عليَّ بن أبي طالب لتبليغ هذه الآيات إلى الناس أيام الحج وقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي» على عادة العرب في ذلك، وأدرك علي أبا بكر في الطريق فقال أبو بكر: أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور، ومضيا للحج، وفي يوم النحر كان علي يبلغ الناس ويساعده كثير من الصحابة مثل أبي هريرة والطفيل بن عمرو الدوسي، وكانوا يصيحون في الناس: «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ومن كان بينه وبين رسول اللَّـه ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر»[1].

هذه الآيات والتي تليها في سورة براءة، والتي حددت العلاقة مع غير المسلمين، من أواخر ما نزل من القرآن والتي تمثل المرحلة النهائية من مراحل الجهاد، وقد لخص ابن القيم هذه المراحل تلخيصًا جيدًا فقال: «ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث حتى لقي اللَّـه عز وجل: أول ما أوحى إليه ربه أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾ [المدثر: ١، ٢]، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه[2]، ثم أنذر من حولهم من العرب[3]، ثم أنذر الناس قاطبة، ثم أنذر العالمين[4]، فأقام بضع عشرة سنة ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال، ثم أمره بأن

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٩٤)، والصحيحة (٢/ ٥٤٦).

(٢) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩].

(٣) ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ [الأنعام: ٩٢].

(٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يقاتل من قاتله، ويكف عمَّن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله للَّه، ولما نزلت سورة براءة أمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

قسم أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده، وقسم لهم عهد مؤقت لم ينقضوه فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسم لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم»[1].

كما ذكر هذا التطور ابن تيمية / فقال: «فَبدرٌ كانت أساس عز الدين، وفتح مكة كانت كمال عز الدين، فكانوا قبل بدر يسمعون الأذى الظاهر، ويؤمرون بالصبر عليه، وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم، فيؤمرون بالصبر عليه، وفي تبوك أمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين، فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم في مجلس خاص ولا عام»[2].

*** فوائد ودروس:**

(١)

هذا الإعلان العام وهذا الإنذار الحاسم يدل على أن الرسول ﷺ كان يحتمل من الكفار والمنافقين قبل براءة ما لم يكن يحتمل بعد ذلك، ويستفاد من هذا أن قوة المسلمين وضعفهم لها صلة بتلك المراحل، وأن المسلمين عندما يكونون في حالة الضَّعف فلهم أن يأخذوا بالنصوص التي تأمرهم بالعفو

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٥٨).

(٢) الصارم المسلول: ٢٢٠.

والصفح، يقول ابن تيمية: «الحال التي أخبر اللّـه فيها أن المسلمين يسمعون أذى من الذين أوتوا الكتاب والمشركين نسخت عنده بالأمر بقتالهم، ومن الناس من يقول: الأمر بالصفح باق عند الحاجة إليه بضعف المسلم عن القتال، ولا خلاف أن النبي ﷺ كان مفروضًا عليه لما قوي أن يترك ما كان يعامل به أهل الكتاب والمشركين ومظهري النفاق من العفو والصفح إلى قتالهم سواء سُمي هذا نسخًا أو لم يُسمَّ»[1]. ويقول: «فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين»[2].

ويقول العلامة ابن الوزير: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، لا دليل على نسخ ذلك وأمثاله مما وردت به السنة النبوية، ووصفت به الأخلاق المصطفوية، إلا توهّم التعارض، ممن خفي عليه حُسْن اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين»[3]، أي في حال القوة والضعف. وعندما أراد عمر بن عبد العزيز إرجاع الناس إلى السنة والعدل وإقامة الحق، لم يستطع إلا بالتدرج وإعطاء الناس شيئًا من الطمع حتى يخرج شيئًا من العدل، ويقول: «ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا اللّـه، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره»[4].

---

(١) الصارم المسلول: ٢٣٩.

(٢) الصارم المسلول: ٢٢١.

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/ ١٧١).

(٤) الشاطبي، الاعتصام (١/ ٣٢).

ولا يعني هذا العودة إلى التدرج في تشريع الخمر مثلاً أو الصيام والصلاة، والحلال والحرام سيبقى حلالاً وحرامًا إلى يوم الدين، ولكن في حالة الضعف وصراعنا مع الأعداء يمكن العودة إلى آيات الصبر والكف، أو قتال من يقاتلنا، أما مقولة: (خذوا الإسلام جملة أو دعوه)، فهذه إن كانت تعني: القبول والخضوع للإسلام كله وأنه دين اللّـه الذي أنزله لعباده، ولا دين غيره، ولا شريعة غير شريعته، فهذا صحيح، وأما إرجاع الناس إلى الحق وفي التنفيذ فقد يحتاج الأمر إلى مرحلية في التطبيق والانتقال، وهنا يكون هذا الكلام مجملاً ويحتاج إلى التفصيل والبيان، فلو جاء حاكم في بلد لا يطبق شرع اللّـه وقال: أريد أن ألغي الربا وأمنع الخمر، فهل نقول له: إما أن تأخذ الإسلام جملة أو تدع هذه الأشياء، أم نقول له: أصبت في هذا ونريد تطبيق شرع اللّـه كاملاً.

(٢)

إن سبب طواف بعض العرب بالبيت عراة أن قريشًا كانت تسمي نفسها (الحمس) وهذا تعبير عن شدة تعظيمهم لشعائر الحج، فكانوا يلزمون من يأتي من خارج مكة أن لا يطوف بالبيت بلباسه الذي أذنب فيه، بل لا بد إما أن يشتري لباسًا جديدًا أو يستعير لباسًا من أهل (الحمس) وإلا طاف عاريًا[1]، هذا التشدد من قريش يمكن أن نسميه (التدين الوهمي)، فكانوا لا يخرجون إلى عرفات ولا يفيضون منها وإنما من مزدلفة، لماذا؟ لأن أرض عرفات خارج حدود الحرم، وهم لا يخرجون من الحرم أبدًا!!

---

(١) انظر: محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (١/ ٢٤٤)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

ولو كانوا متبعين لسنة إبراهيم عليه السلام لصعدوا إلى عرفات، ولكن عندما يبهت الدين ويندرس في قلوب الناس يتحول إلى رسوم وشكليات يتمسكون بها لإظهار التدين، أو اتخاذها وسيلة لكسب الرزق، أو وسيلة لاستعباد الناس، وقد كشف اللّـه سبحانه وتعالى عن هذه الخبيئة في قريش وأمثالهم، ممن يظهرون الغيرة على الدين، وهم في معزل عن ذلك، فقد بعث رسول اللّـه ﷺ في رجب من السنة الثانية سرية بقيادة عبد اللّـه بن جحش، وأمره بترصد قريش ومعرفة أخبارها، ثم إن هذه السرية قتلت رجلاً من الكفار وأسرت اثنين، وذلك في الشهر الحرام (رجب)، فكان أن بدأت الآلة الإعلامية لقريش تشنع على المسلمين لانتهاكهم الشهر الحرام، فرد اللّـه عليهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ..﴾ [البقرة: ٢١٧]، يقول لهم: إذا كان القتال في الشهر الحرام كبيرة، فإن ما فعلتم بالمسلمين أكبر وأعظم، وإذا كنتم تعظمون الشهر الحرام والبلد الحرام فلماذا أخرجتم المسلمين من مكة (البلد الحرام) بغيًا وظلمًا؟ وقال لهم عن أعمالهم التي يغترون بها ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ..﴾ [التوبة: ١٩].

هذا التدين الفاسد يقع فيه كثير من الناس، لأنّ النفس ترغب في التميز عن الناس، والشيطان يسعفها بالتأويل، وذوو النفوس الطامحة يحبون الرئاسة، ويجعلون التشدد في الدين من وسائلهم لجمع الأتباع، فهؤلاء الأتباع يظنون أن هذا هو القائد الذي كنا نبحث عنه، فهو ملتزم بالأحكام أكثر من غيره!

وقع الخوارج في هذا التشدد والتدين الفاسد، فراحوا يكفرون المسلمين ويقتلونهم باسم هذا التدين، وعباداتهم لا تتجاوز حناجرهم، والإسلام جاء بالحنيفية السمحة التي لا يصلح الخلق إلا عليها ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ..﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقد يتظاهر الإنسان بالورع الشديد، وإنما هو كِبْر وأهواء، كالذي أنكر على النبي ﷺ إعطاءه للمؤلفة قلوبهم «وإنما ينكره ذوو الدين الفاسد كذي الخويصرة التميمي، وكذلك حزبه الخوارج، وهؤلاء أمر النبي بقتالهم؛ لأن معهم دينًا فاسدًا، لا يصلح به دنيا ولا آخرة»[(١)]، ومن مظاهر هذا التدين الفاسد أن الذي يقع فيه يتبلد إحساسه للأمور الاجتماعية والأخلاقية، ويتشدد في الأمور الفرعية، ويبدأ عنده الميل لتصنيف الناس حسب أهوائه ورغباته وعلمه المحدود.. وصاحبه «مولع بالتحريم وراغب في تضييق دائرة المباحات»[(٢)]، وقد أدان القرآن اليهود الذين يمارسون هذا النوع من التظاهر بالدين وقلوبهم غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

(٣)

إن تطهير الجزيرة العربية من الشرك وأهله لأنها قاعدة الإسلام الأولى «وحرم الإسلام، ومعلمه الأول، وداره الأولى»[(٣)]، ومنها سينطلق إلى بقاع الأرض فلا بد أن تكون خالصة من أي شائبة، عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول اللّـه ﷺ يقول: «لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى (٢٨/ ٢٩١).

(٢) محمد الغزالي، علل وأدوية: ٦٣.

(٣) بكر أبو زيد، خصائص جزيرة العرب: ٢٩.

مسلمًا»[1]، وعن ابن عباس أن رسول اللّـه ﷺ قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[2]، وهذا شيء طبيعي، فإن الإسلام إنما جاء رحمة للعالمين، ومن رحمته أن ينقذهم من الشرك، «وليعلم من شاء أن تشريع قانون يمحو الوثنية كتشريع قانون يمحو الأمية، عمل إنساني نبيل، وأن اعتراضًا عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم، ويتمنى لها السمو والكرامة»[3].

* * *

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، انظر: شرح النووي (١٢/ ٩٢)، وصحيح أبي داود (٢/ ٥٨٨).

(٢) صحيح أبو داود (٢/ ٥٨٨).

(٣) محمد الغزالي، فقه السيرة: ٤٥٣.

(٢٤)

وفود العرب

بعد حنين وتبوك، وبعد إسلام ثقيف، أقبلت وفود العرب من كل وجه يؤمون عاصمة الإسلام (المدينة) يدخلون في دين اللّـه أفواجًا، جاءت هذه الوفود مسلمة راغبة في هذا الدين، إلا ما كان من مسيلمة في وفد بني حنيفة، وعامر بن الطفيل في وفد بني عامر، لقد آن للعرب أن يعلموا أن هذا الدين (ذكر لهم) وأن ما هم فيه من الوثنية لا يرضاه عاقل لنفسه، آن لهذه النفوس الحرة أن تزيح عنها غشاوة الجهل، وتقبل قاصدة طيبة (الخير) معقل الإسلام ومأرز الإيمان. ساق ابن إسحاق خبر هذه الوفود دون إسناد غالبًا[١]، كما ذكرها ابن سعد بتفصيل أوسع[٢]، وقد سُمّي هذا العام (التاسع) بعام الوفود وإن كان بعضها قبل ذلك وبعضها بعد العام التاسع، وسنذكر نماذج من هذه الوفود فمنها قدوم ضمام بن ثعلبة وافد قومه بني سعد بن بكر، روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدًا على رسول اللّـه ﷺ فقدم عليه، فأناخ بعيره على باب المسجد، فعقله ثم دخل على رسول اللّـه ﷺ وهو في المسجد جالس في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول اللّـه ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب»، فقال: محمد؟ فقال: «نعم»، قال: يا ابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة، فلا تجد في نفسك، أنشدك اللّـه

---

(١) الصحيحة (٢/ ٥٤١).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (١/ ٢٩١).

إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آللَّـه بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «اللهم نعم»، قال: آللَّـه أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال رسول اللَّـه ﷺ: «اللهم نعم»، ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة، ينشده عن كل فريضة كما نشده في التي قبلها حتى إذا فرغ قال: أشهد أن لا إله إلا اللَّـه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ثم انصرف راجعًا، فقال رسول اللَّـه ﷺ: «إنْ يَصْدُقْ ذو العقيصتين يدخل الجنة»، ثم أتى بعيره وخرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا عليه، فبلغهم وأنذرهم، فما أمسى من ذلك في حاضرته رجل وامرأة إلا مسلمًا[1]. إن ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه يمثل العربي في بساطته ووضوحه، ويمثل رجل الفطرة الذي يسأل سؤالاً مباشرًا، ويصدق محدثه، ثم يسلم دون تلعثم أو تردد، لقدا كتفى بصدق رسول اللَّـه ﷺ، فأين هذا ممن فسد قلبه وعقله في مدنية فارس والروم؟ أو من خلط تخليط الهند في (نرفانها)؟

ومن الوفود: وفد عبد القيس الذين سألهم الرسول ﷺ: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: «مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى»، وقد طلبوا من الرسول ﷺ أن يعلمهم شيئًا يدخلون به الجنة، فقال لهم الرسول: «آمركم بالإيمان باللَّـه وحده، أتدرون ما الإيمان باللَّـه؟ شهادة أن لا إله إلا اللَّـه، وأن محمدًا رسول اللَّـه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان ..» الحديث، وفيها قال ﷺ لأشج عبد القيس: إن فيك خَصْلتين يحبهما اللَّـه: الحِلم والأناة، فقال الأشج: خُلُقين تخلقت بهما أو جبلني اللَّـه عليهما؟ فقال: «بل جُبلتَ عليهما».

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٤٧)، قال في الهامش: سنده قوي.

فهذا وفد موفق جاء ليتعلم أمور دينه، وقد مدح الرسول ﷺ أخلاق أحد رؤسائهم، وأنه مجبول عليهما، ولهذا كان السلف مثل الإمام أحمد والأوزاعي يكرهون المصطلحات الحادثة التي فيها حق وباطل، أو فيها تلبيس على المسلم، فيحبون استعمال كلمة: جَبَل، ولا يحبون كلمة جَبَر، فإن اللَّـه أقدر من أن يجبر عبده بهذا المعنى[1]، ومن أكبر الفساد في الدين تشويه العقيدة النقية بالمصطلحات المموهة المجملة التي فيها حق وباطل، وباطلها أكثر من حقها، فهذه التي توقع الناس في مزالق الانحراف، فإذا لم يكن إيهام وكان المعنى واضحًا موافقًا للكتاب والسنة فلا مانع من التعبير عنه بعبارات مختلفة، فلا مشاحة في الاصطلاح.

ومن الوفود المشهورة وفد الأشعريين من أهل اليمن، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقدم قوم هم أرق منكم قلوبًا»، فقدم الأشعريون. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّـه ﷺ يقول: «جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وأضعف قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدَادين من أهل الوبر قِبَلَ مطلع الشمس»[2]، وفي «صحيح البخاري» أن نفرًا من بني تميم جاؤوا إلى رسول اللَّـه ﷺ فقال: «أبشروا يا بني تميم»، فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول اللَّـه ﷺ، وجاء نفر من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم»، قالوا: قد قبلنا، ثم قالوا: يا رسول اللَّـه جئنا لنتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «كان اللَّـه ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»[3].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٠٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦١٩).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦١٩).

إنّه فرق كبير بين وفدين يدل على الفرق بين طبائع الأمم والشعوب وخصائصها وما تمتاز كل واحدة عن الأخرى، قال بعض العلماء في شرح حديث (الإيمان يمان): «إن رقة القلوب موجودة فيهم بشكل عام، وهذه تدعو إلى الإيمان، ولا يعني شمول الوصف لكل أهل اليمن، وفي كل زمان»[1]، وقال بعضهم: «أي يتأخر الإيمان فيبقى في أهل اليمن بعد فقده في جميع الأرض، وذلك حين يُخرب البيت (الكعبة) ذو السويقتين من الحبشة ويخرج عليهم القحطاني»[2].

وفي حديث وفد الأشعريين ذكر رسول اللّـه ﷺ شيئًا مهمًا عن أثر البيئة ونوع العمل في طبائع الإنسان، فالذي يرعى الغنم فيه سكينة ورقة، والذي يرعى الإبل فيه غلظة وخيلاء، كما ذكر في أحاديث أخرى عن الدُّل الذي يصيب من يتبع أذناب البقر، ولا يعني هذا ترك الزراعة، ولكن أن لا يترك المسلمون الجهاد، والاستعداد، والتخلق بالفضائل الإسلامية.

ومما جاء في حديث وفد ثقيف حين أعلنوا إسلامهم أنهم اشترطوا على الرسول ﷺ أن لا يهدم صنمهم الأكبر، فلم يجبهم إلى ذلك، واشترطوا بقاء تعاملهم بالربا فلم يجبهم أيضًا، وقد ورد عن جابر رضي الله عنه أن ثقيفًا «اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[3].

إن على الدعاة أن يفقهوا هذا الدرس النبوي في معرفة طبائع البشر، وكيفية التعامل مع المسلمين الجدد، والتدرج في نقلهم إلى مراحل الإيمان العالية، وأنّه لا تساهل في أمور التوحيد والعقيدة ولا ملتقى في منتصف الطريق.

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٩٩).

(٢) انظر: محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان (١/ ٥٥).

(٣) صحيح أبي داود (٢/ ٥٨٧).

إنها فترة قصيرة في عمر الأفراد أو عمر الأمم، فبعد عقدين ونيف، أسلمت الجزيرة العربية قيادها للرسول ﷺ وتطهرت من الوثنية وأصبحت قاعدة الإسلام. إنّها حركة بدأت بطيئة ثم مضت متسارعة، ذلك لأن البدايات القوية السليمة المبنية على الأساس الثابت (التوحيد) لابد أن تؤتي ثمارها بإذن اللّـه، أما إذا لحق الدعوة خلل في بدايتها، وحملت غبشًا في تصوراتها، وأخطاء كبيرة في سيرها، فإن طريقها سيطول، وستتعثر كثيرًا.

إن الدعوة الإسلامية اليوم وبعد عشرات السنين ما تزال بين مد وجزر، وكأنها تراوح في مكانها، فلابد أن تصحح مسيرتها وتجدد نفسها وتبني على أسس ثابتة واضحة.

* * *

(٢٥)

دعوة عالمية

رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء[1]

كتب رسول اللّـه ﷺ إلى الملوك والأمراء القريبين والبعيدين، كتب يدعوهم إلى الإسلام، لأن هذا الدين دعوة للناس كافة، لأنه رحمة للعالمين، فليس محصورًا في جنس معين من البشر، ولا هو محصور في بلد معين، والإسلام يرفض عقيدة (الشعب المختار)، ومنذ اليوم الأول والآيات المكية تتحدث عن دعوة الناس، كل الناس ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولأن الإسلام هو خاتمة الرسالات، وهو هداية للبشرية، ومن حقها الاطلاع على هذا الدين لعلها تهتدي بهداه ويشرق عليها نور النبوة، وحتى لا تعيش في نصب ونكد، فالآيات المكية تتحدث عن البشارة والنذارة للعالمين، كان هذا والمسلمون مستضعفون في مكة[2]، والسور المكية تُعرّف الناس مصير الحياة،

---

(١) يذكر الطبري وابن سعد وابن هشام وغيرهم أن هذه الرسائل كانت بعد صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، ولا مانع من تأخير الحديث عنها إلى هذا الموضع، وقد ذكر البخاري في صحيحه رسالة النبي ﷺ إلى كسرى بعد ذكره لغزوة تبوك وهي في السنة التاسعة، أي أنه لم يراع عنصر الزمن.

(٢) هذا لا يتعارض مع سنة التدرج التي سنتحدث عنها في فصل قادم إن شاء اللّـه.

وصلة الإنسان بالكون وخالقه، ومسؤولية الإنسان في الأرض، وتحرير الإنسان من العبودية لغير اللَّـه.

أرسل النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي بكتاب إلى قيصر الروم، وعبد اللَّـه بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس، وعمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة (وليس بالنجاشي الذي أسلم)، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر، وعمرو بن العاص إلى حاكمي عُمان: جيفر وعباد ابني الجلندي، كما أرسل كتابًا إلى ملك البحرين المنذر بن ساوى العبدي، وإلى صاحب اليمامة هوذة بن علي الحنفي، وغيرهم من أمراء المناطق في أطراف الجزيرة العربية.

أخرج البخاري في صحيحه نص كتاب النبي ﷺ الذي بعثه إلى هرقل ملك الروم: «بسم اللَّـه الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد اللَّـه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللَّـه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].[1]

وكان رد هرقل فيه تعقل وروية، فقد ورد في كتب السيرة أنه سأل أبا سفيان صخر بن حرب (وكان في الشام للتجارة)، سأله عن محمد ﷺ عن نسبه، فقال أبو سفيان هو أوسطنا نسبًا، وسأله هل يتبعه الضعفاء، وهل يرتد أحد منهم بعد الإيمان .. وعن صراعه مع أعدائه ... وقد صدق أبو سفيان في إجاباته، فقال هرقل: إن كان حقًّا كما تقول فسيملك ما تحت قدمي ولم يسلم.

---

(١) انظر: أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٦)، والأريسيون: الفلاحون.

وأما رد كسرى فكان رد المتكبر الجبار الذي يحتقر العرب، ومزّق كتاب الرسول ﷺ، فدعا عليه الرسول ﷺ أن يمزق اللّـه ملكه، وقد وقع ما دعا به الرسول ﷺ.

وأسلم حاكما عمان والمنذر بن ساوى العبدي، وأما المقوقس فقد أرسل بهدايا إلى الرسول ﷺ ولم يسلم.

علم الصحابة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى أن هذا الدين دعوة للعالم، فقاموا بنشره شرقًا وغربًا، ودخلت أمم وشعوب في دين اللّـه، وتمتعت أمم بحماية هذا الدين واستظلت بعدله ورحمته كما قال الصحابي الجليل عبد اللّـه بن مسعود عن واجب المسلمين ونشر الدعوة: «تدخلون الناس الجنة بالسلاسل».

ومن آثار هذه العالمية أن المسلم يعتقد أن أرض اللّـه واسعة، فأينما ذهب واستقر يبث دعوته، بل أخلاقه وعمله دعوة، وأنه إذا ضيق عليه في مكان فسوف يهاجر إلى مكان آخر، وفي الواقع التاريخي نلاحظ أنه ما ضعف المسلمون في جانب إلا وقامت لهم دولة وقوة من جانب آخر من الأرض.

* * *

(٢٦)

حجة الوداع

تطهرت الجزيرة العربية من الشرك والأوثان، وعاد البيت العتيق خالصًا للتوحيد، كما رفعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هذا البيت العتيق الذي تهفو إليه النفوس من كل فج عميق، ليقيموا شعائر اللَّـه، وليشهدوا منافع لهم، ولتبقى هذه الأمة متصلة الحلقات مع رسل اللَّـه السابقين الذين دعوا إلى عبادة اللَّـه وحده.

عزم رسول اللَّـه ﷺ في العام العاشر على الحج، وأداء هذا النسك الأعظم الذي اختاره اللَّـه للمسلمين، ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]، وأعلم رسول اللَّـه ﷺ الناس بذلك ليخرجوا معه، فخرجت الألوف المؤلفة، ووافاه في الطريق خلائق لا يُحصون فكانوا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مَدَّ البصر، وقيل إنه وقف معه مائة وعشرون ألفًا، خرجوا يحجون مع رسول اللَّـه ﷺ ويتعلمون منه مناسكهم، أليست الغاية هي عبادة اللَّـه وحده وإقامة شعائره، ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ..﴾ [الحج: ٤١].

خرج رسول اللَّـه ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة (٢٥ من ذي القعدة) وأحرم من ذي الحليفة، وكان قارنًا لأنه ساق الهدي معه، وأَهلَّ بالتوحيد (لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك)، ووصل رسول اللَّـه ﷺ إلى مكة في الرابع من ذي الحجة، فقام بنسك العمرة ولم يحلَّ من إحرامه، وفي الثامن من ذي

الحجة (يوم التروية) توجه إلى منى فبات بها، وفي اليوم التاسع سار إلى عرفة، وضربت له قبة بنمرة، وبعد زوال الشمس سار حتى أتى وادي عُرنة، فخطب الناس خطبة جامعة فقال: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع – ربا العباس بن عبد المطلب – فإنَّه موضوع كله، فاتقوا اللَّـه في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان اللَّـه، واستحللتم فروجهن بكلمة اللَّـه، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب اللَّـه، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت، فقال بإصبعه يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: اللَّهم اشهد، اللَّهم اشهد، ثلاث مرات»[1].

إنها وصايا مودع أحس بأن مهمته قد انتهت باكتمال هذا الدين ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وبعد أن دخل الناس في دين اللَّـه أفواجًا.

إنها وصايا رسول شفيق رحيم، يخشى على أمته أن تؤتَى من هذه الأدواء التي أهلكت الأمم السابقة.

إنها وصية من أوتي الحكمة، وعرف أمراض الأمم التي مازال القرآن يعيد ذكرها في محكم آياته محذرًا ومنذرًا من الظلم السياسي والاجتماعي

---

(١) صحيح مسلم، شرح النووي (٨/ ١٧٠)، الدرر لابن عبد البر: ٢٦٦.

والاقتصادي، فهي «تحريم للمحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض»[1]، وقد أكد الرسول ﷺ على هذه الوصايا والتحذيرات في خطبة ثانية في منتصف أيام التشريق[2]، فلماذا هذا التأكيد والتكرار؟ لأنّ رسول اللّـه ﷺ كان أعلم الناس بسنن اللّـه سبحانه وتعالى في خلقه، وأن إقامة العدل من أعظم السنن في استمرار الأمم وقوتها، وبالعدل قامت السماوات والأرض ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧ – ٩]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء: ٥٨]، وقد أحسن شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت حين قال:

وَمَا الدِّينُ إِلَّا أَنْ تُقَامَ شَرَائِعٌ ∴ وَتُؤْمَنَ سُبُلٌ بَيْنَنَا وَهِضَابُ

ولكن المسلمين سرعان ما خالفوا وصية نبيهم، وأصبح القتل من أهون الأشياء عندهم، فما أسرع أن يقول الظالم الطاغية: (يا غلام اضرب عنقه) أو (ائت بالنطع) ظلمًا وعدوانًا دون قضاء ولا شريعة.

وسرعان ما صودرت الأموال، واعتدي على بيت مال المسلمين، واتخذ الحكام عباد اللّـه خَوَلاً، ومال اللّـه دولاً، ولم يعد بيت المال للأمة كلها كما كان زمن الراشدين، ولم يعد هذا التلاحم بين الرعية والراعي وبين الأمة والدولة، وهذا ما جعل الإمام الطرطوشي يتأسف ويقول: «ومعظم ما أهلك بلاد الأندلس وسلط عليها الروم، أن الروم التي كانت تجاورها لم يكن لها بيوت أموال، وكانوا يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس، ويأخذ

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٣٣).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٨٨).

مثل ما يأخذون وقد لا يأخذ منها شيئًا، وإنما يصطنعون بها الرجال، وكانت سلاطيننا تحتجز الأموال وتضيع الرجال، وكان للروم رجال، وللمسلمين بيوت أموال، فبهذه الخلة قهرونا وظهروا علينا»[1].

ألم يقل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: «لو أقمت فيكم خمسين عامًا ما استكملت فيكم العدل»[2]. وعندما حاول أقاربه الحديث معه عن الأموال قال لهم: «إن اللّـه بعث محمدًا ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابًا، واختار له ما عنده، فترك لهم نهرًا شُربهم سواء، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم عمر فعمل عمل صاحبه، ثم لم يزل النهر يشتق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان، وقد يبس النهر الأعظم، ولن يروي أهله حتى يعود إلى ما كان عليه»[3].

إن ساعة عدل تساوي عشرات بل مئات السنين من الظلم، وما تردت الأمة إلا بفشو هذه المظالم بينهم، فأصبحت أمة منكسرة ذليلة.

وفي هذه الخطبة الجامعة التي قرر فيها رسول اللّـه ﷺ قواعد الإسلام، وهَدَم قواعد الشرك والجاهلية أوصى رسول اللّـه ﷺ خيرًا بالنساء، وليس هذا مكان الحديث عن المرأة في الإسلام: مكانتها وحقوقها وواجباتها، فقد كتب الكثير حول هذه الموضوعات، ولكن لابد من التأكيد على أن الرسول ﷺ إنما ذكر هذه الوصية لشفقته وخوفه على الأمة أن لا تقوم بهذا الواجب، فتظلم المرأة وتُمتهن، ويعود الناس إلى جاهليتهم الأولى، فيكون هذا سببًا من أسباب

---

(١) سراج الملوك: ٣٧٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٩).

ضعف المجتمع، وضعف تربية الأبناء والبنات، والمسلمون اليوم في هذا الموضع بين تفريط وإفراط، بين عادات قبلية أو شرقية تحسب على الإسلام، وبين من يتصرف ويفتي من خلال ردود أفعال على اتهامات الغرب، فهو يريد أن يثبت عكس ما يقوله الغربيون، فيقع في الشطط والتساهل، ويؤول النصوص لتنطبق على ما يريد، وخير الأمور أوساطها، وإن عصر الصحابيات والتابعيات هو العصر النموذجي للذي يريد أن يعلم مكانة المرأة ووظيفتها وحقوقها وواجباتها ..

* * *

(٢٧)

التدرج والمرحلية بين الفترة المكية والفترة المدنية

من سنن اللّـه سبحانه وتعالى التمهيد للشيء العظيم بمقدمات وإرهاصات وكأنها تعين الإنسان رأفة به حتى يقوم بتحمل الأعباء الكبيرة، وهذه سمة أصيلة في منهج الدعوة وتطبيقها على أرض الواقع لمن يتبع نزول القرآن المكي ثم الانتقال إلى المرحلة المدنية. يقول الشيخ الإبراهيمي: «وما تلك السرايا التي كان يبعث بها إلى جهات مكة إلا إرهاصات لفتح مكة، وما تحول القبلة إلا خطوة في سبيل الفتح، وما عمرة الحديبية إلا تدبير إلهي للفتح ..»[1]. وعن عائشة رضي اللّـه عنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه (القرآن) سورة من المفصل فيه ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا». وكان التمهيد لنزول الوحي على رسول اللّـه ﷺ الرؤيا الصادقة، وتسليم الحجر عليه، وأن حبب إليه التحنث والبعد عن الناس. يقول الشيخ دراز: «كان كل تنزيل يطابق حاجة الساعة ويرتبط مع سابقه ولاحقه في التعليم والتشريع بشكل تدريجي، فهو يبدأ بالأمر البسيط ﴿اقرأ﴾، ثم تدرج إلى تكليف الرسول ﷺ ﴿قم فأنذر﴾، ثم دعوة الأقربين ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ثم أبناء مدينته جميعًا ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً﴾، فإلى أبناء المدن المجاورة ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾، وأخيرًا إلى بني البشر جميعًا ﴿يا أيها الناس إني رسول اللّـه إليكم جميعًا﴾.

---

(١) الآثار الكاملة (٥/ ٨٦).

وخذ كذلك تطور التعاليم بقسميها: الأسس الجوهرية للكتاب في السورة المكية، ثم شرح وتطبيق تلك المبادئ في السور المدنية، واستمر هذا المجرى الطويل للأحداث منذ غار حراء حتى يوم حجة الوداع»[1].

إن قول الرسول ﷺ لقريش وللناس في الفترة المكية: «قولوا لا إله إلا اللّـه تفلحوا وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم»، دليل على أن أصول الإسلام وكلياته والتخطيط للمستقبل كان في مكة.

وقع التدرج في تحريم الخمر على أربع مراحل:

١- في الحديث عن ثمرات النخيل والأعناب قال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ..﴾ [النحل: ٦٧].

٢- ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

٣- ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾.

٤- ﴿فاجتنبوه﴾.

تشريع الجهاد أيضًا بأربع مراحل:

١- مرحلة الكف ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ ...﴾ [النساء: ٧٧].

٢- مرحلة الإذن بالجهاد ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝﴾ [الحج: ٣٩].

٣- مرحلة قتال من قاتلهم ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٤- جهاد العدو وقتال المشركين كافة.

---

(١) محمد عبد اللّـه دراز: دراسات إسلامية: ١٦.

ومن الأمثلة الواضحة على التدرج والمرحلية في قضايا الدعوة والفرق بين مرحلة الضعف ومرحلة القوة وتغير الأحكام تبعًا لذلك. الحال التي أخبر اللَّه فيها أن المسلمين يسمعون أذى من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، هذه الحال نسخت عند من يرى الأمر بقتالهم، ولكن هناك من يقول: الأمر بالصفح باق عند الحاجة إليه بضعف المسلم «فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين»[1].

ويقول العلامة ابن الوزير: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، لا دليل على نسخ ذلك وأمثاله إلا عند من يتوهم التعارض أو خفي عليه اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين ..»[2].

ومن مرونة الإسلام في إعداد المؤمنين لحمل التكاليف، ما وقع في تشريع الصلاة، حيث كان المسلمون يصلون ركعتين في الغداة وركعتين في العشي، ثم نسخت بفرض الصلوات الخمس، وزيدت الظهر والعصر والعشاء إلى أربع، ووقع مثل ذلك في تشريع الصيام فعندما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة جعل يصوم في كل شهر ثلاثة أيام، وصام يوم عاشوراء. ثم إن اللَّه سبحانه فرض عليه الصوم ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قال في (أضواء البيان): «خُيّر بين صوم اليوم أو إطعام المسكين، فلما استأنست النفوس به في الجملة أوجبه إيجابًا عامًّا جازمًا ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾.

---

(١) ابن تيمية: الصارم المسلول: ٢٢١.

(٢) العواصم والقواصم: ١٧٢.

في المدينة اكتمل التشريع وتكونت أمة الإسلام، وأصبح الصحابة قادة فقهاء علماء. وقبل انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت الجزيرة العربية أول وأكبر قاعدة للإسلام، وتحولت المدينة إلى أول عاصمة للإسلام.

كيف نستفيد في واقعنا المعاصر من هذه السنة في التدرج والمرحلية، وكيف نطبقها على مستجدات حياتنا اليومية، هل إذا كان المسلمون في حالة ضعف نعود إلى المراحل الأولى من التشريعات التي ذكرت، هل نعود إلى ترتيب تحريم الخمر، أو إلى التخيير في الصيام، طبعًا الجواب سيكون: لا، ولكن يمكن أن نرجع في العلاقات مع غير المسلمين إلى آيات الصبر والصفح أو آيات الكف عن القتال أو الدفاع حسب الضعف أو القوة. حول هذا الموضوع يعلق الشيخ صبحي الصالح ⁄: «والواقع أن الإسلام فرق بين الأعماق والسطحيات في نفسية الأفراد والمجتمعات، فكل قضية عميقة الجذور في نفس الأفراد اتخذت شكل عادة شعورية أو شكل تقليد اجتماعي أو عرف دولي فللإسلام فيها موقف المتمهل المتريث الذي يؤمن بأن البطء مع التنظيم خير من العجلة مع الفوضى، وكل قضية سطحية تنزلق إلى نفس الفرد أو إلى نفس الجماعة فتفسد عليها فطرتها الزكية فهي جريمة في الحياة الإنسانية ولا يجوز السكوت عنها، فليقطع الإسلام فيها برأيه، ولتكن حدوده غير قابلة للنقاش، في ضوء هذا نظر الإسلام إلى القتل والغش والسرقة والغصب وأكل مال الناس بالباطل والزنا فحرمها مرة واحدة تحريمًا قاطعًا، فلا يصح القول بتدرج التحريم، فقد حرم اللّـه الزنا في لهجة قاطعة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ وكذلك السرقة ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾، وفي الحديث «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[1].

---

(١) معالم الشريعة: ١٣٩.

وحين تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قال: «ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا اللّـه، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره ..»، يريد / أن يقول: إن التغيير الذي يريده لابد فيه من التدرج، فيقيم لهم السنة والعدل ويزيل البدعة و الظلم حتى تصلح أحوالهم وأنه لا يستطيع الإصلاح الشامل في يوم وليلة.

هذه السنة في التدرج تحتاج إلى فقه دقيق وتقوى بعيدة عن الأهواء، ودراسة كل حالة ومكانها وزمانها. وأما مقولة خذوا الإسلام جملة أو دعوه فهذا في الجانب النظري العقدي، وفي الاستسلام لهذا الدين صحيح، وأما في التطبيق العملي فقد يحتاج الأمر إلى الاستفادة من الزمن وإلى قطع المراحل الضرورية.

* * *

(٢٨)

تربية القادة لا تربية العبيد[١]

كيف بنى رسول اللَّـه ﷺ هذا الجيل بخطوات وئيدة، ينضجها القرآن ويوجهها ويحوطها، كيف تربى هذا الجيل من خلال قيادة الرسول ﷺ وطريقته المثلى في إخراج رجال عظماء، إن هذا الموضوع يستحق الوقوف عنده طويلاً، خاصة عندما نرى أن التربية في عصور التخلف تتردى إلى تربية الإذلال والطاعة العمياء والأنانية، وهذا أحد أسباب ضعف الأمة لضعف القيادات أو فقدانها.

أمثلة من تربية الرسول ﷺ لأصحابه تربية القادة.

١- لم يكن تربيته لأصحابه تربية أتباع لا يسألون، ولا يبدون آراءهم في المسائل التي هي محل اجتهاد ونظر، بل كان ﷺ يعودهم على إبداء الرأي ويسألهم، وهو تدريب عملي على المشاركة في القرارات المصيرية، ومن يتصفح السيرة سيجد هذا الأمر في مشاورته ﷺ لأصحابه في بدر وأحد والخندق، وحديث الإفك .. وفي مواطن كثيرة من الأمور التي ليست من الوحي أو التشريع.

٢- كان رسول اللَّـه ﷺ يشارك أصحابه العمل، كما فعل يوم الأحزاب، فكان ينقل التراب في حفر الخندق، وشاركهم في بناء المسجد النبوي وهم ينشدون:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالرَّسُولُ يَعْمَلُ ∴ فَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

---

(١) هذه العبارة كان يرددها أستاذنا الشيخ محمد أمين المصري / في دروسه ومحاضراته.

وكما جاء في حديث «وعليٌّ جمع الحطب» حتى لا يتميز عليهم بشيء، وهذا من صفات القيادة الناجحة والأصيلة، إنها قريبة ممن حولها، وهذا يُمكّن القائد من معرفة أصحابه وفهمهم، كما يمكن الأصحاب من الاطلاع المباشر على صفات القائد وأخلاقه وأهدافه، فيزدادون قربًا منه، واقتداءً به وامتثالاً لأمره.

٣- حسن استقباله ﷺ للقول المعارض له، كما في قصة أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وذلك حين قال الرسول ﷺ في بدر: «من لقي منكم العباس بن عبد المطلب عم النبيّ فلا يقتله، فإنما خرج مستكرهًا»، فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا ونترك العباس، واللّـه لئن لقيته لألجمنه بالسيف.

استقبل الرسول ﷺ هذا القول القاسي بحلمه وعفوه، أما أبو حذيفة فقد ظل نادمًا حزينًا على هذه الكلمة إلى آخر حياته رضي الله عنه.

وعندما صلى الرسول ﷺ على زعيم المنافقين عبد اللّـه بن أبي بن سلول، قال له عمر: أعلى عدو اللّـه؟ والرسول يبتسم، حتى إذا أكثر عليه عمر، قال له: «أخّر عني يا عمر»، وذلك قبل نزول النهي عن الصلاة على المنافقين، يقول عمر رضي الله عنه: «فتعجبت من جرأتي على رسول اللّـه ﷺ».

٤- كان ﷺ يكلف الصحابة بالمهمات الكبيرة، ويترك لهم التصرف والاجتهاد في التفاصيل، وهكذا تخرجوا قادة في الإدارة أو في قيادة الجيوش، وهذه الطريقة تسمى طريقة (التفويض) وهي أفضل بكثير من المركزية الشديدة أو تلك التي يقوم فيها القائد بكل الأعمال؛ لأنه لا يثق بإتقان من حوله لأعمالهم، ولا يثق بخبراتهم وهي طريقة فاشلة، لأن الأعمال تتراكم على القائد، ولا يستطيع إنجازها بمفرده، ولا يجد رجالاً حوله لأنه لم يدربهم على القيادة، وهذا كالأب الذي يحمل طفله دائمًا، فمتى يتدرب الطفل على المشي؟!

وقد تعلم أبو بكر ﷺ هذه الطريقة من الرسول ﷺ فقد أعطى ثقته بقيادة خالد بن الوليد ﷺ وفوضه في التصرف، وإذا أخطأ في بعض الأمور عاتبه ولم يعزله.

كان الرسول ﷺ يثق بالقيادات التي ربّاها، فيرسلهم أمراء للمناطق أو قادة للجيوش، وذلك لأنهم صبروا وصابروا وجاهدوا وظهر معدنهم من خلال الشدائد التي تضبط مقاييس الرجال. وطريقته ﷺ في اختيار القادة أن يقدم الكفاءة حيث تكون الحاجة إليها، والعلم حيث يكون الحاجة إليه، وأن يكون القائد محبوبًا مطاعًا من قبل الذين معه، وقد جاء في الحديث «من استعمل رجلاً على عشرة وفي العشرة من هو أفضل منه فقد غشّ اللّـه ورسوله».

ويروي ابن سعد أن راية بني مالك في تبوك كانت مع عمارة بن حزم، فأخذها الرسول ﷺ، ودفعها إلى زيد بن ثابت، فقال عمارة: يا رسول اللّـه، أبلغك عني شيء؟ قال: لا، ولكن القرآن، يقدم.

٥- رأى الصحابة الذين تخرجوا من هذه المدرسة كيف يكون القائد، فالرسول ﷺ لم يكن يتميز عن أصحابه في ملبس أو مأكل أو مسكن، ولم يكن له شارة أو هيئة معينة، فكان الأعرابي إذا دخل المدينة وأتى إلى مجلس الرسول ﷺ يسأل: أيكم ابن عبد المطلب؟ ولم يكن يعجبه ﷺ أن يمشي الناس وراءه كما يمشون وراء الرؤساء والزعماء، عن عبد اللّـه بن عمرو بن العاص قال: «ما رأيت رسول اللّـه ﷺ يأكل متّكِئًا قط، ولا يطأ عقبه رجلان».

٦- التف حول الرسول ﷺ شخصيات كبيرة، ولهم طباع مختلفة، أبو بكر فيه لين، وعمر فيه شدة، وعثمان فيه حياء ... وقد ترك الرسول ﷺ هذه الطباع التي تميز كل شخصية، ولكنه وضعها كلها في خدمة هذا الدين. لم يطلب من خالد ﷺ أن يكون عالمًا فقيهًا، ولم يطلب من أبي هريرة أن يكون قائدًا عسكريًّا. وهكذا استفاد من كل الطاقات، ومن كل المواهب والاستعدادات، ولذلك أبدع الصحابة كل في اختصاصه، وهكذا تكون التربية الصحيحة، فلا يؤسر أحد على غير ما جبله اللّـه عليه.

٧- رغم تعظيم الصحابة للرسول ﷺ وحبهم الشديد له، وأنهم يفدونه بأنفسهم، إلا أن القرآن الكريم وجههم إلى أن الارتباط يجب أن يكون بالدين، فلا يعني ذهاب القائد ذهاب الدين ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والإنسان بفطرته يجب أن يكون جزءًا من شيء كبير، يشعر بالانتماء له، وهو شيء دائم، والقرآن ربط المسلمين برباط عقدي سياسي وهو (الأمة).

٨- ومن تربيته ﷺ لأصحابه تربية قيادية أنه يشعرهم بأهميتهم، فالمواهب يجب أن تشجع وتصقل، والإنسان بفطرته يرغب بهذا التشجيع ويبش له، جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر اللّـه عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم أبي بن كعب، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1].

٩- اهتم الرسول ﷺ بعنصر الشباب، وهذا تخطيط للمستقبل، وتشجيع للصف الثاني، ليتهيأ للقيادة، وقد بعث الرسول ﷺ بعد بيعة العقبة الأولى مصعب بن عمير إلى المدينة وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، وبعث معاذ بن جبل قاضيًا إلى مدينة (الجند) في اليمن واستعمل الرسول ﷺ عمرو بن حزم بن زيد الخزرجي على نجران وهو ابن سبع عشرة سنة، وبعد فتح مكة أمّر عليها عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، وهو شاب في العشرين.

وبقيت هذه العلاقة الطيبة بين الشيوخ والشباب في عهد الخلفاء الراشدين، فكان عمر رضي الله عنه يجب أن يكون في مجلسه عبد اللّـه بن عباس.

* * *

(١) صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٢٧).

(٢٩)

رحمة مهداة

قال ﷺ: «أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة» ..

اجتمع لرسول اللَّـه ﷺ ما لم يجتمع لإنسان قط، فكل ما تفرق في البشر من الصفات العالية، والأخلاق السامية، متضمن في أخلاقه وصفاته، بل اجتمع ما يصعب أن يجتمع في شخص واحد كالتواضع مع المهابة، والحياء مع الشجاعة، والكرم العظيم مع البعد عن الفخر وقد وُصف في الكتب السابقة بأنّه (الضحوك القتال)، وقال عن نفسه: «أنا نبي الملحمة، أنا نبي المرحمة»، فكان يقود المعارك ويجيّش الجيوش مع رحمة وشفقة بالغتين، تقول عائشة رضي اللَّـه عنها: «ما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل اللَّـه، ولا ضرب خادمًا ولا امرأة»، ويقول ابن مسعود: كُنَّا مع النبي ﷺ فمررنا بقرية نمل قد احترقت، فغضب النبي ﷺ وقال: «لا ينبغي لبشر أن يعذب بعذاب اللَّـه عز وجل»[1]، ومرَّ ابن عمر بنفر قد نصبوا دجاجة يترامونها، فقال: من فعل هذا؟ إن رسول اللَّـه ﷺ لعن من فعل هذا.

إن أخلاقه وصفاته ﷺ هي بحد ذاتها معجزة، فهو عظيم الشفقة والرحمة، ما سمع منه كذبٌ، لا في أمور الدين، ولا في أمور الدنيا، بقي على طريقته الْمَرْضِيَّة من أول عمره إلى آخره، والكاذب والمزوّر لا يمكنه ذلك.

---

(١) صحيح أبي داود (٣/ ١٢٦).

وكان بعيدًا عن التنعم في الدنيا، وما أكل على خوان، ولا خُبز له مُرقق، ولكن كان يُستعذب له الماء من بئر السقيا كما تقول عائشة رضي اللَّـه عنها[1]، وروى مسلم أن رجلاً من الأنصار كان يُبرّد الماء لرسول اللَّـه ﷺ في أشجابٍ له[2]، وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا، يجالس أصحابه وهم يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، وربما تبسم معهم، مشغول الفكرة بهموم المسلمين، ولا يفوته من أمور بيته وأزواجه وأولاده، قال عبد اللَّـه ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه: قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: محمد رسول اللَّـه عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا اللَّـه[3]. ومن رحمته وعاطفته وقلبه الكبير، زيارة قبر أمه، عن أبي هريرة قال: «زار رسول اللَّـه ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله وقال: استأذنت ربي عز وجل أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنت في أن أزور قبرها فأذن لي»[4].

أليس هذا من دلائل نبوته واختياره واجتبائه؟ بلى واللَّـه، «فإنّه لم يُسمع ولم يُر قط كصبره، ولا كحلمه، ولا كوفائه، ولا كجوده، ولا كنجدته، ولا كتواضعه، ولا كعلمه، ولا كعفوه، ولم نجد شجاعًا إلا وقد جال جولة وفرَّ فرَّة وانحاز مرة، من معدودي شجعان الإسلام ومشهوري فرسان الجاهلية، ولا يستطيع منافق أو زنديق أن يحدث أن محمدًا جال جولة قط، أو فرَّ فرَّة قط، ولا هاب من كاثره»[5].

---

(١) علي بن محمد الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية: ١٥١.
(٢) المصدر السابق: ١٥٢.
(٣) زاد المعاد (١/ ٩٣).
(٤) صحيح سنن النسائي (٢/ ٤٣٦).
(٥) محمد إسعاف النشاشيبي، الإسلام الصحيح: ٦٦، والكلام للجاحظ.

وقد عرفت قريش أخلاقه كل المعرفة، وجربوا عاداته وأعماله، ولم يكن غريبًا عليهم، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، واستدل (هرقل) ملك الروم على نبوته بالسؤال عن أخلاقه وسيرته، كما جاء في الحوار المشهور بينه وبين أبي سفيان بن حرب، ثم إن هذه الآيات ليست في أخلاقه فقط، بل خَلْقه أيضًا: فقد وُصف بأنه ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، ولا بالجعد القطِط ولا بالسّبِط، إذا مشى تكفَّأ، وإذا أشار أشار بيده (لحيويته الكاملة).

ومن آيات نبوته وعظمته ﷺ أنّه: «نهض وحيدًا فريدًا يدعو الناس كافة إلى التوحيد، قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة، كل هذا كان فيه والناس أحباء ما ألفوا، وأعداء ما جهلوا، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهواتهم، ولكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم الحجة، ويناضلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، ما هذه القوة في ذلك الضعف؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؟ ما هذا العلم في تلك الأمية؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟ إن هو إلا نداء العناية العليا، ذلك نداء أمر اللّـه الصادق يقرع الآذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلف، أي برهان على النبوة أعظم من هذا»[1].

أليس من آيات نبوته أنه لم يجتمع حول نبي من الأنبياء كما اجتمع حول رسول اللّـه ﷺ من أمثال الصديق والفاروق وبقية العشرة المبشرين بالجنة، ومن أمثال القادة العظام كسعد وخالد وأبي عبيدة وعمرو بن العاص، ومن أمثال العلماء والحكماء الربانيين كعمر وعلي وابن مسعود وابن عمر ومعاذ وزيد وابن عباس.. ولقد كان أمراؤه من أبناء الملوك مثل باذان بن ساسان من ولد بهرام جور، أمّره رسول اللّـه ﷺ على أهل اليمن كلها بعد موت كسرى،

---

(١) مجلة المنار، المجلد (٦/ ١٨٠).

وهو أول من أسلم من ملوك العجم، وإن ملوك الأطراف قد أسلموا ودانوا له ﷺ فلقد أسلم النجاشي ملك الحبشة، وبعث رسول اللَّـه ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي ملك البحرين فأسلم وصدق، وبعث جرير بن عبد اللَّـه البجلي إلى ذي الكلاع الحميري، وذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما، وتوفي رسول اللَّـه ﷺ وجرير عندهم، وبعث عمرو بن العاص إلى جَيْفر وعبد ابني الجُلَندي ملوك عُمان فأسلما، وبعث إلى فروة بن عمرو الجذامي يدعوه إلى الإسلام، وكان فروة عاملاً لقيصر على (معان) فأسلم، وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه، فكيف يجتمع مثل هذا العدد لولا أن تكون النبوة؟ «وفيهم العدد الذي صلح لإقامة دولة وسياسة أمة، وقيادة جيوش، ورياضة أقوياء، وضعفاء»[1].

ألم يؤلف في سيرته ﷺ الألوف من الكتب، من عصر الرسالة وحتى يومنا هذا، وبجميع اللغات، وفي جميع الأقطار، ويكتب عن سيرته الذين يؤمنون به ويحبونه ويعظمونه، والذين لا يؤمنون به ولا برسالته، «وإن ما صنف بالأوردية وحدها في السيرة يبلغ ألفًا إن لم يزد»[2]، والذي صنفه الأوربيون بالمئات، وما تزال المطابع تدفع بالعشرات في كل سنة.

«أليس ذكره خمس مرات في الأذان، ينادى باسمه الشريف ملء الجو، وذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة، يهمس باسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرضُ على المسلمين أن لا ينقطعوا عن نبيهم ولا يومًا واحدًا من التاريخ، ولا جزءًا واحدًا من اليوم»[3].

---

(١) انظر: سليمان الندوي، الرسالة المحمدية: ١٥٤، وعباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام: ١٤٣.

(٢) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية: ٩٧.

(٣) الرافعي، وحي القلم (٢/ ١١).

يقول المؤرخ (ول ديوارنت): «إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، فإن محمداً ﷺ كان من أعظم عظماء التاريخ، لقد نجح في تحقيق غرضه نجاحًا لم يدانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ، وقل أن نجد إنسانًا غيره حقق كل ما كان يحلم به. لقد أقام دينًا سهلاً واضحًا قويًّا واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عُظمَى»[1].

هذا هو المثل الأعلى للبشرية، به ختمت النبوات، وهو الماحي الذي يمحو اللَّـه به الكفر، أثنى اللَّـه عليه ليكون قدوة للعالمين ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، فهل تستطيع وريقات أن تحيط بكل هذه الحياة المليئة، وكل هذا الهدى، وكل هذه الدروس والتربية والتخطيط، وكل هذه الفضيلة التي تمثلت بشرًا.

قد يُكتب عن شخصية أو عبقرية، ويكون فيها نقائض كثيرة، وقد لا توفَّى حقّها، فكيف نوفي صاحب الرسالة حقه؟ وهو خير البشر على الإطلاق، وإن خصلة لتدل وحدها على أنه نبي مرسل، فما كتب ويكتب إن هو إلا أقل الواجب على المسلمين تجاه نبيهم، وإن هي إلا محبة لصاحب هذه الرسالة ندخرها ليوم الحساب، والحمد للَّه الذي حفظ كتابه، ووفق الأمة لحفظ سيرة وسنة نبينا ﷺ ... وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

* * *

(١) قصة الحضارة (١٣/ ٤٧).

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
١- الرسالة	١١
٢- خيار من خيار	١٨
٣- قبل البعثة	٢٥
٤- الوحي والنبوة	٢٨
٥- السرية والعلنية	٣١
٦- إعراض قريش	٣٦
٧- المحنة والابتلاء	٤٠
٨- الخروج من المأزق	٤٨
٩- الفَرج بعد الشدة وبيعة العقبة الكبرى	٥٦
١٠- التمكين في أرض الهجرة	٦٤
١١- التمكين في الأرض: المسجد ـ الإخاء	٧٤
١٢- التمكين في الأرض: الجهاد	٧٩
١٣- يوم الفرقان	٩٠
١٤- غزوة بني قينقاع: الصراع مع اليهود	١٠٠
١٥- سنن الله في النصر والهزيمة	١٠٥
١٦- على ماء المريسيع	١١٦
١٧- وهزم الأحزاب وحده	١٢٥
١٨- درس في السياسة	١٣٢

الموضوع	الصفحة
اللّـه أكبر ... خربت خيبر	١٤٧
١٩- ومن دخله كان آمنا: الفتح الأعظم	١٥٢
٢٠- يوم حنين	١٦٠
٢١- غزوة العسرة: الصراع مع الروم، ظاهرة النفاق	١٦٦
٢٢- لا يحج بعد العام مشرك.....	١٨١
٢٣- وفود العرب	١٨٩
٢٤- دعوة عالمية	١٩٤
٢٥- حجة الوداع	١٩٧
٢٦- التدرج والمرحلية بين الفترة المكية والفترة المدنية	٢٠٢
٢٧- تربية القادة لا تربية العبيد	٢٠٧
٢٨- رحمة مهداة.....	٢١١
المحتويات	٢١٧

* * *